الفصل الحادي والخمسون

فقر وغنى وأفراح وأتراح

وبين الجاهليين أناس عرفوا بالغنى وبالثراء وبكثرة المال ، كالذي ذكرته عن بعض رجال مكة . فقد كان بينهم رجال متخمون شبعون ، سكنوا بيوتاً حسنة ، زيّنوها بأثاث جيد وثير ، ولبسوا ملابس الحرير والألبسة الجيدة المستوردة من بلاد الشأم واليمن ، وأكلوا أكلات الأعاجم وتفننوا في الطبخ ، وشربوا بآنية من ذهب وفضة وبلور . وساهموا في قوافل تجارة مكة الجماعية . كما كانت لهم قوافل خاصة بهم، تأتي اليهم بأرباح طيبة . ومنهم من استغل ماله بالربا وبامتلاك الأرض لاستغلالها ، كما فعلوا بالطائف ، الى غير ذلك من وسائل اتبعوها في جمع المال .

وكان منهم أناس ذوو حس وعاطفة ، فعطفوا على المحتاج وأطعموا الناس ، رقة بحالهم أو طلباً للشهرة والاسم . فهم جماعة محسنة على كل حال وكان بينهم من لم يكن له قلب ولا حس ، فلم يعرف محتاجاً أو فقيراً ولم يفهم معنى للاحسان على الفقير . فاشتط وابى وقسى في رباه ، ولم يتساهل فيه . ومنهم من أكل أموال اليتامى ومنع الماعون . واذا باع أنقص في المكيال ، ليزيد في ماله . وفي القرآن الكريم آيات في وصف حال هؤلاء الأغنياء ، وتقريع لهم وتوبيخ على ما فعلوه : (فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين)[1] . أي يدفع

---

١ سورة الماعون ، الاية ٢ وما بعدها .

اليتيم عن حقه ، ويقهره ويظلمه . وانهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار ، ويقولون : (انما يحوز المال من يطعن بالسنان ، ويضرب بالحسام)[1] .

وكان منهم من يبخل بماله فلا ينفق منه على المحتاجين والمساكين . وكان منهم من يعتذر عن بخله وحرصه ، فيقول : (أنطعم من لو شاء الله أطعمه!) فنزلت هذه الآية : (ولا يحض على طعام المسكين) فيهم ، (وتوجه الذم اليهم . فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عسروا)[2] .

وكان بين الجاهليين فقراء معدمون مدقعون لم يملكوا من حطام هذه الدنيا شيئاً . وكانت حالتهم مزرية مؤلمة . منهم من سأل الموسرين نوال إحسانهم ، ومنهم من تحامل على نفسه تكرماً وتعففاً ، فلم يسأل غبّاً ولم يطلب من الموسرين حاجة ، محافظة على كرامته وعلى ماء وجهه ،مفضلاً الجوع على الشبع بالاستجداء . حتى ذكر ان منهم من كان يختار الموت على الدنيّة . والدنيّة ، أن يذهب الى رجل فيتوسل اليه بأن يجود عليه بمعروف . ومنهم من اعتقد . والاعتقاد أن يغلق الرجل بابه على نفسه ، فلا يسأل أحداً حتى يموت جوعاً . وكانوا يفعلون ذلك في الجدب . قيل : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا أن يموتوا أغلقوا عليهم باباً وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً[3] .

وكان بعض تجار مكة إذا أفلسوا أو ساءت حالتهم ، خرجوا الى البادية سراً، وأقاموا هناك حتى يهلكوا جوعاً . خشية معرة وقوف رجال مكة على حالهم ، واشفاقاً على أنفسهم من التوسل بالأغنياء لمساعدتهم[4] . فالموت على هذه الصورة أسهل عندهم من الإستجداء . روي (عن ابن عباس) في تفسير (لإيلاف قريش) ، قوله : (وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة ، جرى هو وعياله الى موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خباء فماتوا)[5] .

وكان منهم من رضي وقنع بالدون من المعيشة ، فعاش في فقر مدقع. والدقع

---

١ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢١١) .
٢ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢١١) .
٣ تاج لعروس (٢/٢٤٦) ، (عفد) .
٤ السيوطي ، الدر المنثور (٤/٣٩٧) .
٥ القرطبي ، لجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٤) ، تفسير سورة قريش .

الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر واللصوق بالأرض من الفقر والجوع. فهم ينامون على التراب ويلتحفون السماء. والدوقعة الفقر والذل، وجوع أدقع وديقوع شديد[1]. وهم مثل (بنو غَبْراء) في الفقر والحاجة، أولئك الذين توسدوا الغبراء واتخذوا التربة فراشاً لهم، لعدم وجود ملجأ لهم يأوون اليه، ولا مكان يحتمون به.

ولم يكن في وسع كثير من الجاهليين الحصول على اللحم لفقرهم فكانوا يأتدمون (الصليب) وهو الودك. ودك العظام. يجمعون العظام ويكسرونها ويطبخونها، ثم يجمعون الودك الذي يخرج منها ليأتدموا به. وقد عرفوا بـ (أصحاب الصلب). ولما قدم الرسول مكة (أتاه أصحاب الصلب الذين يجمعون العظام إذا لحب عنها لحمانها فيطبخونها بالماء ويستخرجون ودكها ويأتدمون به)[2].

ولم يكن في استطاعة الفقراء أكل الخبز لغلائه بالنسبة لهم. لذلك عدّ أكله من علائم الغنى والمال[3]. وكان الذي يطعم الخبز والتمر يعد من السادة الكرام. وكان أحدهم يفتخر بقوله (خبزتُ القومَ وتمرتهم)، بمعنى أطعمتهم الخبز والتمر[4]. وقد افتخر (بنو العنبر) بسيدهم (عبدالله بن حبيب العنبري)، لأنه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن، بل كان يأكل الخبز. فكانوا إذا افتخروا قالوا : منّا آكل الخبز. وكانوا يقولون (أقرى من آكل الخبز)[5] لأنه كان جواداً. وذكر أن (كسرى) حين سأل (هوذة بن علي الحنفي) عن غذائه ببلده، قال له هوذة : الخبز. (فقال كسرى : هذا عقل الخبز لا عقل اللبن والتمر)[6].

وكان منهم من لا يستطيع شراء الملابس ليلبسها، فيستر جسمه بالأسمال البالية وبالجلود، ويعيش متضوراً جوعاً. وقد ذكر أن الفقراء من الصحابة كانوا لا يملكون شيئاً، ويتضورون جوعاً، وينامون في صفة المسجد، يرزقهم الرسول

---

١ تاج العروس (٥/٣٣٠)، (دقع).
٢ تاج العروس (١/٣٣٧)، (صلب).
٣ بلوغ الارب (١/٨٧).
٤ تاج العروس (٤/٣٢)، (خبز).
٥ بلوغ الارب (١/٨٧).
٦ بلوغ الارب (١/٨٧).

من رزقه ، تنبعث منهم روائح كريهة ، من عدم الغسيل . ويلعب القمل شعرهم ، ويتنقل على أجسامهم حيث يشاء .

ويظهر أن بعض زعماء مكة قد شعر بخطر ظاهرة انتشار الفقر بمكة ، و سيتركه الاعتقاد من أثر في مجتمعها ، فعمل على معالجة مشكلة الفقر والجو والتسول ، حفظاً لمصالح الأغنياء على الأقل. فهم إن تركوا الفقر ينتشر ويتفشى ولم يعملوا على معالجته ، تطاول الفقراء منهم على أموال الأغنياء ، وقاموا عليها وأرغموهم على أخذ أموالهم أو على أن يساهموهم فيه . أضف الى ذلك ما سيحد اعتداء الفقراء على أموال الأغنياء من خوف ، ومن فزع في نفوس أهل ه المدينة المتاجرة ، لذلك سعوا لاقناع تجار المدينة على إنصاف الفقراء والمحتاج ومساعدتهم للتخفيف من شدة الجوع والفقر .

ويظهر ان المخمصة ، كانت شديدة ، شدة حملت البعض على السطو أموال الناس وعلى سرقة ما يجدونه أمامهم . ففزع من ذلك أهل مكة ، و زعماؤها على التفكير في اتخاذ أقسى العقوبات في حق السارق ، فكان أن ح (الوليد بن المغيرة) بقطع يد السارق ، ذكر انه كان أول من حكم بقطع السارق في الجاهلية [1] فصار القطع سنّة عندهم .

وكان أن نادى (هاشم) ، وهو (عمرو بن عبد مناف) إنصاف الفقر والمحتاجين وتقديم المعونة لهم ، حتى يصير فقيرهم كالكافي،فما ربح الغني أخر منه نصيباً ليكون للفقراء[2] . وبذلك يخفف من حدة وطأة الفقر في هذه المد المتاجرة .

وذكر في تعليل دعوة (هاشم) الى إنصاف الفقراء ومساعدتهم ، انه (ك سيداً في زمانه ، وله ابن يقال له : أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه . فقال له : نحن غداً نعتفد . فدخل أسد على أمه يبكي وذكر ما قاله تربه .. فأرسلت أم أسد الى أولئك بشحم ودقيق ، فعاشوا أياماً . ثم إن تربه أتاه أيضاً ، فقال : نحن غداً نعتفد ، فدخل أسد على

---

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٦/١٦٠) .
٢ والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٥) .

يبكي ، وخبره خبر تربه ، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : انكم أحدثتم حدثاً تقلون فيه وتكثر العرب ، وتذلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتقاد يأتي عليكم . فقالوا : نحن لك تبع . قال : ابتدئوا بهذا الرجل -- يعني أبا ترب أسد - فأغنوه عن الاعتقاد ، ففعلوا. ثم انه نحر البدن ، وذبح الكباش والمعز ، ثم هشم الثريد ، وأطعم الناس ، فسمّي هاشماً . وفيه قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين : في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشأم للتجارات ، فما ربح الغني قسّمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على هذا ، فلم يكن في العرب بنو اب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيّهم حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) بصنيع هاشم (وآمنهم من خوف) أن تكثر العرب ويقلوا [1] .

وورد أنّ (حكيم بن حزام) كان يقاسم ربحه من تجارته الفقراء وأهل الحاجة والمحاويج[2] . وذكر أن قريشاً كانت تتراحم فيما بينها وتتواصل . وأن تفسير (لإيلاف قريش) ،هو (لتراحم قريش وتواصلهم). فالإيلاف التراحم والتواصل .

---

١ القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن (٢٠/٢٠٥) ، وينسب البيت :
والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يصير فقيرهم كالكافي
الى مطرود بن كعب ، راجع البكري ، سمط (٥٤٧ وما بعدها) ، القالي ، أمالي (١/٢٤١) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١٠/٥٤٦ ، طبعة طهران) ، اليعقوبي ، (١/٢٠٢) ، البلاذري ، انساب (١/٥٨) ، ابن العربي ، محاضرات الابرار (٢/١١٩٠) ، تاريخ الخميس ، للدياربكري (١/١٥٦) ، المرتضى ، أمالي (١/١٧٨ وما بعدها) .

٢ الزبير بن بكار ، نسب قريش (١/٣٦٧) ، رقم (٦٤٤) .

وذكر أن قريشاً كانوا (يتفحصون عن حال الفقراء ويسدّون خلة المحاويج)[1] . ويظهر أن هذا إنما حدث بفعل (هاشم) وبتنظيمه وجمعه وبدعوته تلك . فصار أصحاب القلوب الرقيقة يخرجون منذ يومئذ من دخلهم نصيباً يجمعونه ويوحدونه ، لينفقوا منه على من به حاجة من أهل مكة ومن الغرباء .

والإيلاف هو التطبيق العملي لدعوة (هاشم) إلى إنصاف الفقراء والمساكين والمحاويج . فبعقد (الإيلاف) وإجماع قريش على تلبية دعوة هاشم بإخراج نصيب من أموالهم يخصص لمساعدة المحتاج ، تمكن (هاشم) من تطبيق دعوته تطبيقاً عملياً ، ومن مساعدة المحتاجين . حتى صار عمله سنة لمن جاء بعده . فحسن حال المحتاجين ، ونعش فقراء مكة . يؤيد ذلك ما نجده من قول (ابن حبيب) : (أصحاب الإيلاف من قريش الذين رفع الله بهم قريشاً ونعش فقراءها)[2].

والرفادة والسقاية ، هما من ثمرات دعوة (هاشم) ، فالرفادة ، هي إقراء ضيوف مكة وإطعام المحتاجين من أهلها . والسقاية إستاءهم الماء ، والنبيذ واللبن . فلم تقتصر السقاية على تقديم الماء بلا ثمن الى العطشان والمحتاج الى المـــاء . بل اشتملت على تقديم اللبن والنبيذ بل والعسل كذلك الى المحتاج بلا ثمن . وقـــد ذكر أن (سويد بن هرمي بن عامر الجمحي) ، كان (أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة)[3] . وأن (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) : المعروف بـ (زاد الركب) ، و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) ، (كانا يسقيان العسل بمكة بعد سويد بن هرمي)[4] . وكل هـذه الأعمال ، هي من الأعمال الخيرية النافعة ، التي تدل على نفس طيبة ، تسعى للتخفيف عن مصاعب الناس ، وعن رغبة في مساعدة الفقراء والمحتـــاجين . فصار في وسع من يقصد البيت الجلوس على أرائك ليرتاح عليها ، كما صار في وسعه الحصول على ماء أو سقاء لبن أو ماء معسل ، أي محلى ، مجاناً إن لم يتمكن من دفع الثمن .

وفي حلف (الفضول) دعوة لـ (مواساة أهل الفاقة ممن ورد مكة بفضول أموالهم)[5] ، وذلك لمنع الظالمين من أهل مكة من اغتصاب أموال أهـــل الفاقة

---

١ تفسير النيسابوري ، حاشية على تفسير الطبري (١٦٩/٣٠) ، (طبعة بولاق) .
٢ المحبر (١٦٢) .
٣ المحبر (١٧٦ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٧٧) .
٥ ابن هشام (١٤١/١) .

والغرباء ممن يرد الى المدينة وليس لهم من جار ومعين ، ومن أهل مكة كذلك. فهو توثيق وتتمة لعمل (هاشم) .

ونجد هذه الدعوة الانسانية في مساعدة الجار والفقير في الشعر : في مثل قول الشاعر :

يبيتون في المشتى ملاء بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمائصا[1]

وهو بيت يمثل المثل الجاهلية العليا التي تجسمت في الجوار وفي المروءة والاحسان والحميّة وأمثال ذلك .

ونجد مثل هذه النزعة في قول الشاعر :

هنالك إن يُستحبلوا المال يُخبلوا وإن يسألوا يُعطوا وإن ييسروا يُغْلوا
على مُكثريهم رزق من يعتريهم وعنـد المُقِلّين السماحـةُ والبذل

وفي قول (الخِرْنق بنت هَفّان) ترثي زوجها (عمرو بن مرثد) وابنها (علقمة بن عمرو) وأخويه حسان وشرحبيل ، حيث قالت في جملة ما قالته :

والخالطين نَحيتهم بنضارهم وذوي الغنى منهم بذي الفقرِ[2]

والنحيت الدخيل في القوم ، والنضار الخالص النسب[3] . فهم قوم كرام ، لم يفرقوا بين الدخيل والأصيل ، ولا بين الغني والفقير ، فنال الدخيل ما عند الأصيل ، وشارك ذو الفقر والمدقعة الغني في ماله ، وهو أعز شيء عند الانسان ، لأنه أبى أن يستأثر به ، وجاره فقير ليس عنده ما يسد حاجته. فمجتمعهم مجتمع (خليط) ، و (الخليط : القوم الذين أمرهم واحد) ، والمشارك الحقوق . وفي الحديث : الشريك أولى من الخليط . والخليط أولى من الجار . وأراد بالشريك : المشارك في الشيوع[4] .

ونجد فكرة مساعدة الفقير ، والاستهانة بالمال بانفاقه على المعوزين ، والإنعام به على الفقراء ، في أبيات أخرى في مثل :

---

١ الامالي للقالي (٢/١٥٨) .
٢ الامالي للقالي (٢/١٥٨) .
٣ ويروي لحاتم الطائي . تاج العروس (١/٥٩١) (نحت) .
٤ تاج العروس (٥/١٣٢) ، (خلط) .

والخالطين غنيّهم بفقيرهم والمنعمين على الفقير المرمل[1]

وفي مثل قول الأعشى :

وأهان صالح ماله لفقيرها وآسى وأصلح بينها وسعى لها[2]

وقول الشاعر عمرو بن الاطنابة :

والخالطين حليفهم بصريحهم والباذلين عطاءهم للسائل[3]

وأرى أنّ في ورود لفظة (الخالطين) في هذه الأبيات ، بمعنى خلط المال، وتخصيص الأغنياء نصيباً من أموالهم للفقراء ، دلالة على أنّ من الجاهليين الأغنياء من كان قد وضع في ماله حقوقاً للمحتاجين ، بحيث صاروا كالمخالطين لهم في مالهم ، وفي منزلة الشركاء لهم في المال . من دون إرغام لهم ولا إكراه ، أو طمع في ثواب دنيوي أو في عالم ما بعد الموت . وذلك غاية الجود والكرم .

وفي شعر للنعمان بن عجلان الأنصاري ، إشادة بعمل قومه الأنصار ، إذ قَسَّموا أموالهم وديارهم بينهم وبين المهاجرين . فيقول :

وقلنا لقوم هاجروا : مرحباً لكم وأهلاً وسهلاً ، قد أمنتم من الفقر
نقاسمكم أموالنا وديارنا كقسمة أيسار الجزور على الشطر[4]

ويذكرنا شعره هذا الذي افتخر فيه بقومه الأنصار بالمؤاخاة ، إذ آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار . بعد مقدمه بخمسة أشهر ، وقيل ثمانية أشهر . فكانوا يتوارثون بهذا الإخاء في ابتداء الأسلام إرثاً مقدماً على القرابة . ثم نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد بدر[5] . والمؤاخاة هي (المخالطة) الجاهلية في صورة أخرى .

وقد كان بين الجاهليين من حبس الحبوس،لتكون وقفاً على الفقراء والمحتاجين

---

١ الخالديان ، الاشباه والنظائر (١/٢٠) ، ديوان حسان (٣٠٨) .
٢ ديوان الاعشى (٣/٣٥) .
٣ الحماسة ، لابن الشجري (٥٦) .
٤ الاصابة (٨٧٤٨) ، (٣/٥٣٢) ، (القاهرة ١٩٣٩ م) ، الاستيعاب (٢٩٨) ، Journal of the Economic and Social History of the Orient, Vol. VIII, Part II, 1965 p. 125.
٥ امتاع الاسماع (١/٤٩ وما بعدها) .

وأبناء السبيل . ومنهم من ساعد الفقراء والصعاليك بتقديم الخيل لهم للإغارة بها واكتساب الرزق عن طريق الغارات. كالذي روي عن (الريّان بن حويص العبدي) من أنه كان قد جعل فرسه (هراوة) موقوفة على الأعزاب من قومه . فكانوا يغزون عليها ويستفيدون المال ليتزوّجوا ، فإذا استفاد واحد منهم مالاً وأهلاً دفعها الى آخر منهم ، فكانوا يتداولونها كذلك ، فضربت مثلاً ، فقيل : أعزّ من هراوة الأعزاب[1] . وذكر أنها جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة ، فتصدق بها على العُزّاب ، يتكسبون عليها في السباق الغارات[2] .

ومن تقاليد العرب مساعدة الضال والمنقطع والمعزب ، وهو الذي عزب عن أهله في إبله وانقطع عنهم . ومن ذلك ما ورد في الحديث : أنهم كانوا في سفر مع النبيّ ، فسمع منادياً ، فقال : انظروا ستجدوه معزباً أو مكلثاً . والتعزب: الابتعاد عن الجماعات بسكنى البادية ، وقد نهي عن ذلك في الأسلام . كما أشير الى ذلك في حديث (ابن الأكوع) لما أقام بالزبذة (أبو ذر الغفاري) ، قال له الحجاج ارتددت على عقبيك تعزبت[3] .

ومنهم من جعل في ماله صدقة يؤديها الى الفقراء على وجه القربة الى الآلهة أو عن دافع انساني أو عن حب للظهور والفخر . ويقال لمن يتصدق على غيره (المتصدق) . وهو عمل تطوعي ، يقوم به الإنسان اختياراً وتطوعاً ، لمساعدة المعوز والمحتاج .

و (ابن السبيل) هو (ابن الطريق) ، الذي قطع عليه الطريق ، ولا يجد ما يتبلغ به . والضيف المنقطع به ، فيجب أن يعطى ما يتبلغ به الى وطنه[4] . وقد تتعرض السابلة الى لصوص الطرق ، يسلبونهم ما معهم ، وقد يأخذون حتى ملابسهم ، فيتعرض مثل هؤلاء للهلاك والأخطار ، حتى يتهيأ لهم من له شفقة ورحمة فيغيثهم بما يتمكن منه ، وقد يحملهم معه .

وكان لفقر الكثير منهم ، يصعب عليهم دفع ديونهم ، ويماطلون في الأداء

---

١ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) ، نهاية الارب (١٠/٤٤ وما بعدها ، ٤٦) ، العمدة (٢/٢٣٥) .
٢ العمدة (٢/٢٣٥ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) .
٤ تاج العروس (٧/٣٦٦) ، (سبل) .

حتى انهم كانوا اذا رأوا الهلال ، قالوا : لا مرحباً بمحل الدين ومقرب الآجال[1]. وذلك لأنهم كانوا يتواعدون في دفع الديون على مطالع القمر[2] .

ومما زاد في فقر بعضهم ، شرب الخمر والمقامرة . فكان بعضهم يفني ماله في شرب الخمر ، (وكان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعد حزيناً سليباً ، ينظر الى ماله في يدي غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً)[3] . فعلوا ذلك أملاً في التخلص من ألم الفقر والحرمان باللجوء الى الخمور لطمس ألم الفقر والذل ، والى القمار ، أملاً في الكسب والربح ، فزادوا بذلك فقرهم ، وعرّضوا أنفسهم الى الخسارة .

الوأد :

والوأد من ذيول الفقر . وقد جاء ذكره في الآية : « وإذا الموؤودة سُئلت : بأي ذنب قُتلَتْ »[4] . والوأد على ما يذكر علماء التفسير وأهل الأخبار هو دفن البنات وهنّ أحياء ، وذلك خوفاً من العار أو لوجود نقص فيهـا أو مرض أو قبح كأن تكون زرقـاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشاءم منها العرب[5] ، أو خوفاً من الفقر والجوع ، أو مخافة العار والحاجة[6] .

ورجع (القرطبي) أسباب الوأد لخصلتين : (إحداهما ، كانوا يقـولون إن الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات به . الثانية ، إمّا مخافة الحاجـة والإمـلاق وإما خوفاً من السبي والإسترقاق)[7] . وذكر غيره أن سنين شديـدة كانت تنزل بالناس تكون قاسية على أكثرهم ، ولا سيما على الفقراء ، فيأكلون (العِلْهِز)

---

١ تاج العروس (٢٨٦/٧) ، (حلل) .
٢ تاج العروس (٧٢/٩) ، (نجم) .
٣ تفسير الطبري (٢١/٧ وما بعدها) .
٤ سورة التكوير ، الاية ٧ .
٥ بلوغ الارب (٤٣/٣) ، اللسان (٤٤٢/٣) ، (وأد) .
٦ تاج العروس (٥٢٠/٢) ، (وأد) . اللسان (٤٤٢/٣) .
٧ القرطبي ، الجامع (٢٣٢/١٩) .

وهو الوبر بالدم، وذلك من شدة الجوع[1] . فهذا الفقر وهذه الفاقة وذلك الإملاق، كل ذلك حملهم على وأد البنات حذر الوقوع في الغواية ، فتلحق السُّبَّة بأهل البنت وبعشيرتها وقبيلتها . وذكر أيضاً أن من جملة أسباب الوأد وجود نقص في المؤودة أو مرض أو قبح ، كأن تكون زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء وأمثال ذلك ، وهي من الصفات التي كان يتشاءم منها العرب[2] .

وذكر بعض أهل الأخبار ، ان بعض العرب كانوا يتشاءمون من البنت الزرقاء أو الشيماء ، أو الكسحاء ، فكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة ، ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة . وذكروا ان والد (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، وهي عمة (وهب) ، والد (آمنة) أم الرسول ، أرسل بها الى (الحجون) لوأدها ، للصفة المذكورة ، ثم تركها في قصة يروونها ، وصارت كاهنة شهيرة[3] . فسبب الوأد عند هؤلاء ، هو هذه العقيدة القائمة على التشاؤم من البنت الزرقاء والشيماء .

ويذكرون انهم كانوا يحفرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بنتاً ولم يشأ أهلها الاحتفاظ بها رموا بها في الحفرة ، أو انهم كانوا يقولون للأم بأن تهيء ابنتها للوأد وذلك بتطييبها وتزيينها . فإذا زينت وطيبت، أخذها أبوها الى حفرة يكون قد احتفرها ، فيدفعها فيها ، ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة بالأرض . وذكر أيضاً ، ان بعضهم كان يغرقها ، أو يقوم بذبحها ، ليتخلص بهذه الطرق منها[4] .

وذكر ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت ، فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية ، وإن اراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها : طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها احماتها ، وقد حفر لها بئراً في الصحراء فيبلغ بها البئر ، فيقول لها انظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب ، حتى تستوي البئر بالأرض . وروي عن

---

١ الكامل (١/٢٨٨) .
٢ نهاية الارب (٣/١٢٦ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٤٣) .
٣ السيرة الحلبية (١/٥٠) ، (مطبعة الاستقامة) ، (القاهرة ١٩٦٢) ، (١/٥٣) ، (المكتبة التجارية) ، (القاهرة) ، (باب تزويج عبد الله) .
٤ الكشاف (٤/١٨٨) ، سورة التكوير ، تاج العروس (٢/٥٢٠) ، (وأد) ، بلوغ الارب (٣/٤٢ وما بعدها ، ٥٢) .

ابن عباس انه قال : كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة ، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وردّت التراب عليها ، واذا ولدت ولداً حبسته[1] . ومنه قول الراجز :

سمّيتها إذ ولدت : تموت والقبر صهرٌ ضامن زمّيتُ

الزمّيت الوقور[2] .

وفاعل العمل هو (الوائد) والبنت المدفونة وهي حية (الموؤودة) ، والعادة (الوأد) .

ويرجع بعض أهل الأخبار تأريخ الوأد الى ايام (النعمان بن المنذر) ملك الحيرة ، فيقولون إن (بني تميم) منعوا الملك ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم ، فجرّد الملك حملة عليهم كان اكثر رجالها من بني بكر بن وائل ، أوقعت بهم وسبت ذراريهم . فلما ارضوا الملك وكلّموه في الذراري ، (حكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ، فأية امرأة اختارت زوجها،ردّت عليه ، فاختلفن في الخيار. وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم المنقري،فاختارت سابيها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يدسّ كل بنت تولد في التراب ، فوأد بضع عشرة بنتاً. وبصنيع قيس بن عاصم وايجاده هذه السنة نزل القرآن في ذم وأد البنات[3]. ورجع بعض الأخباريين الوأد الى قبيلة ربيعة . زعموا أن بنتاً لرئيسها وسيدها وقعت أسيرة في أيدي قبيلة أغارت عليها : فلما عقد الصلح ، لم تشأ البنت العودة الى بيتها ، فاختارت بيت آسرها ، فغضب رئيس ربيعة لذلك ، واستنّ هذه السنة ، وقلدته بقية العرب حتى فشت بين القبائل[4] . وهي رواية قريبة في مضمونها وفي فكرتها

---

١ بلوغ الارب (٢/٤٣) ، تفسير البيضاوي (١/٦٧٠) ، تفسير القاسمي (١٧/ ٦٠٦٩ وما بعدها) ، تفسير الشربيني (٤/٤٧١ وما بعدها) ، روح المعاني (٢٨/٣٠ وما بعدها) .

٢ القرطبي ، الجامع (١٩/٢٣٣) ، الطبرسي ، مجمع البيان (١٠/٤٤٤) ، (طبعة طهران) ، (١٣/٤٥ وما بعدها) ، (بيروت) . الكشاف (٣/٣١٥) ، تفسير الخازن (٣/١١٩) ، (٤/٣٥٦) .

٣ بلوغ الارب (٣/٤٢ وما بعدها) ، الاغاني (١٢/١٥٠) ، تفسير الطبري (٣٠/٤٥ وما بعدها) ، صبح الاعشى (١/٤٠٤) ، (اختارت صاحبها وعمرو بن المشمرج) ، نهاية الارب (٣/٩٢٧) .

٤ بلوغ الارب (٣/٤٣) ، تفسير الخازن (٣/١١٩) .

من الرواية الأولى . والفرق بين الروايتين هو في تسمية القبيلة والأشخاص .

وورد أن (قيس بن عاصم) التميمي ، جاء الى النبي ، فقال : إني وأدت ثماني بنات في الجاهلية . قال فأعتق عن كل واحدة منهن بدنة[1] . أو : فأعتق عن كل واحدة منهن رقبة[2] .

ويذكر الأخباريون أن (الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة ، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الإسلام ، وقد قل ذلك فيها إلا من بني تميم، فإنهم تزايد فيهم ذلك قبيل الإسلام)[3] . وقبيلة كندة وقيس وهذيل وأسد وبكر ابن وائل من القبائل التي عرف فيها الوأد ، وخزاعة ، وكنانة ، ومضر،وأشدهم في هذا تميم زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الاكفاء فيهن[4] . وذكر بعض أهل الأخبار ان الوأد كان في تميم ، منهم انتقل الى غيرهم . وقيل : إنه كان في تميم ، وقيس ، وأسد ، وهُذَيْل ، وبكر بن وائل ، وهم من مضر[5] . فهي عادة تفشت في قبائل مضر خاصة . وقيل إنها كانت في غير مضر كذلك . وذكر انها كانت في ربيعة ومضر[6] ، اي في العرب الذين تغلّبت الأعرابية على حياتهم .

وذكر (عكرمة) في تفسير الآية : (قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفهاً بغير علم) ، انها نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر . كان الرجل يشترط على امرأته ، ان تستحيي جارية وتئد اخرى . فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل او راح من عند امرأته ، وقال لها : انتِ عليَّ كظهر امي إن رجعت اليكِ ولم تئديها ، فتخذ لها في الأرض خدّاً وترسل الى نسائها فيجتمعن عندها، ثم يتداولنها حتى إذا ابصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوّت عليها التراب)[7] .

اما ان اول من سنّ الوأد في العرب ، هو (قيس بن عاصم المنقري) ،

---

١ تفسير الطبري (٤٦/٣٠) ، (بولاق) .
٢ القرطبي ، الجامع (٢٣٣/١٩) ، ابن كثير ، تفسير (٤٧٨/٤) .
٣ بلوغ الارب (٤٢/٣) .
٤ القرطبي ، الجامع (١١٦/١٠ وما بعدها) ، نهاية الارب (٨٣/١٨) ، الكامل (٢٨٨/١) .
٥ الكامل (٢٨٨/١) .
٦ تفسير الطبري (٣٨/٧) .
٧ تفسير الطبري (٣٨/٨) .

للسبب المذكور ، فدعوى من الدعاوى المألوفة عن اهـل الأخبار ، وقصة من القصص الذي كانوا يضعونه احياناً حين يقفون عند امر غريب عليهم ، ليس لهم علم به ، فكانوا يوجدون قصصاً في تفسيره وتعليله ، وقفنا عـلى كثير منه . والظاهر ان وأد (قيس) لبنات من بناته ، ووجوده في تميم خاصة بعد ان خفّ عند بقية العرب ، حمـل اصحاب الأخبار على ارجاع اصله واساسه الى (قيس) ، مع انهم يذكرون حوادث عن الوأد ، مثل ما ذكروه عن (سودة بنت زهرة) الكاهنة ، تتقدم في الزمن على (قيس) . والوأد عند العرب اقدم منه ، وربما يعود الى ما قبل الميلاد . وفي القرآن الكريم : (وإذا بُشّر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشّر به . أيمسكه على هون ام يدسُّه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون) . وفي هذه الآية وصف للحالة النفسية التي كانت تعتور الأب عند إخباره بميلاد بنت له ، وشرح لبعض الأسباب التي كانت تحمل الآباء على وأد البنات . ويروى ان بعض الجاهلية يتوارى في حالة الطلق ، فإن أُخبر بذكر ابتهج او بأنثى حزن ، وبقي متوارياً اياماً يدبر ما يصنع أيتركه ويربيه عـلى ذلّ ، ام يدسه في التراب ، بأن يئده ويدفنه حياً حتى يموت ، ام يهلكه بأمر آخر ، بأن يلقيه من شاهق . روي ان رجلاً قال : يا رسولَ اللهِ والـذي بعثك بالحق ما اجد حلاوة الاسلام منـذ اسلمت . وقد كانت لي في الجاهلية بنت وأمرت امرأتي ان تزينها وأخرجتَها فلما انتهيت الى وادٍ بعيد القعر ألقيتها ، فقالت : يا ابتِ قتلتني ! فكلما ذكـرت قولها لم ينفعني شيء . فقال الرسول : ما في الجاهلية فقد هدمه الاسلام ، وما في الاسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يغرقها وبعضهم يذبحها[1] .

وقد ذكر العلماء في تفسيرهم : « وقالوا : ما في بطون هـذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا . وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ، سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا مـا رزقهم الله إفتراءً على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين)[2] . أن الله (أخبر بخسرانهم لوأدهم البنات وتحريمهم البحيرة وغيرها بعقولهم ، فقتلوا أولادهم سفهاً

---

١ النحل ، الاية ، ٥٨ ، تفسير الطبري (٨٣/١٤ وما بعدها) .

٢ بلوغ الارب (٥١/٢ وما بعدها) .

خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أمـــوالهم ولم يخشوا الإملاق ، فأبان ذلك عن تناقض رأيهم)[3] .

قال (القرطبي) : « إنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الإملاق ، كما ذكر اللهُ عزّ وجل في غير هذا الموضع . وكان منهم من يقتله سفهاً بغير حجة منهم في قتلهم ، وهم ربيعة ومضر ، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحميّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ، فألحقوا البنات بالبنات . وروي أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،وكان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالكَ تكون محزوناً ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخـــاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمت . فقال له : أخبرني عن ذنبك : فقال : يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي ان اتركها فتركتها حتى كبرت وادركت ، وصارت من اجمل النساء فخطبوها ، فدخلتني الحميـة ولم يحتمل قلبي ان ازوجهـــا او اتركها في البيت بغير زواج ، فقلت للمرأة : إني اريد ان اذهب الى قبيلة كذا وكذا في زيارة اقربائي فابعثيها معي، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحلي ، واخذت علي المواثيق بألاّ اخونها ، فـذهبت الى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية إني اريد ان ألقيها في البئر فالتزمتني ، وجعلت تبكي،وتقول : يا ابتِ ايش تريد ان تفعل بـي ؟ فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحميّة ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا ابتِ لا تضيـــع امانة أمي ! فجعلت مرة انظر في البئر ومرة انظر اليها فأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر : يا ابتِ ، قتلتـني . فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليـه وسلم واصحابه ، وقال : لو امرت ان اعاقب احداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك »[3] .

فالفاقة والحمية واعتقاد بعض منهم ان الملائكة بنات الله ، فيجب إلحاق البنات بالبنات ، هي عوامل دفعت بالعرب الى الوأد . فهي بين عامـل اقتصادي نص عليه في القرآن الكريم ، وعامل اجتماعي ، هو الحمية ، وخشية لحوق العار بالانسان

---

١ الانعام ، الاية ١٣٩ وما بعدها .
٢ القرطبي ، الجامع (٩٦/٧) ، تفسير الخازن (١٦٣/٣ ، ٣٥٦) .
٣ القرطبي ، الجامع (٩٧/٧) .

من السبي والغارات وعامل ديني ، يرجع الى رأي في دين . لقد تعرض (قتادة) الى قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » ، فقال : « هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافةالسباء والفاقة ويغذو كلبه . وقوله : وحرموا ما رزقهم الله ... الآية وهم أهل الجاهلية جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكّماً من الشياطين في أموالهم »[1] . ولكن أغلب الوأد هو عن العامل الأول ، وهو الخشية من العيلة والفقر والإملاق . وهو ما نُصّ عليه في الآيات المتعلقة بالوأد وبقتل الأولاد[2] . وورد أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهن أحياء . خصوصاً كندة ، خوف العار ، أو خوف الفقر والإملاق)[3] .

ومن النساء من تكون خصبة في ولادة البنات ، فيجلب لها هذا الخصب هجر زوجها لها وفراره منها ومن رؤية بناته . يحدثنا الأصمعي أن امرأة ولدت لرجل بنتاً سمتها الذلفاء ، فكانت هذه البنت سبباً في هرب الرجل من البيت ، فقالت :

ما لأبي الذلفاء لا يأتينا يظلّ في البيت الذي يلينا ؟
يحرد أن لا نَلِدَ البنينا وإنما نأخذ ما يعطينا [4]

ومثل تلك المرأة المسكينة كثير من النساء هجرهن أزواجهن لكثرة ما كن يلدن لهم من البنات ، ولسان حالهن يكرر كلمات أم الذلفاء .

وبمكة جبل يقال له (أبو دلامة) كانت قريش تئد فيه البنات[5] . وذكر أن هذا الجبل يطل على (الحجون) . وقيل كان الحجون هو الذي يقال له :

---

١ تفسير الطبري (٣٨/٨) .
٢ تفسير الطبري (٥٧/١٥) ، القرطبي ، الجامع (٢٥٢/١٠) .
٣ السيرة الحلبية (٥٣/١) ، (باب تزويج عبد الله) .
٤ ونسبت هذه الابيات الى امرأة أبي حمزة الضبي ، الذي هجر زوجته ولجأ الى خيمة جيرانه يبيت فيها فرارا من زوجته التي ولدت له بنتا ، وقد وردت على هذه الصورة:

ما لابي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما تأخذ ما يعطينا ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

بلوغ الارب (٥١/٣) ، البيان والتبيين (١٠٤/١) ، (١٨٦/١) ، (عبد السلام محمد هارون) ، روح المعاني ، للالوسي (١٥٣/١٤) ، تفسير الطبري (٨٣/١٤) .
٥ المستطرف (٧٧/٢) .

أبو دلامة[1] .

وورد في القرآن الكريم ما يشير الى قتل بعض الجاهليين أولادهم خشية الإملاق وخوف الفقر . وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزلت الآيات : (ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إنّ قتلهم كان خطئاً كبيراً)[2] . و (كذلك زُيّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليُردوهم وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ، ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون)[3] . و (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله ، قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين)[4] . و (قل : تعالوا اتل ما حرّم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا اولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم)[5] . وظاهر لفظ الآيات النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً مخافة الفقر والفاقة[6] .

وذكر ان المراد من كلمة (اولادكم) البنات ، وان المقصود بذلك الوأد[7] . أي وأد البنات ، لا قتل الأبناء . وذهب بعض العلماء الى ان المراد بها الأولاد ذكوراً كانوا او اناثاً . (فقد كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن احدهم ، كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبدالله)[8] . فنحن أمام هذه الآيات تجاه موضوعين : وأد البنات وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين . وأد البنات للاسباب المذكورة الواردة في كتب التفسير والحديث ، وقتل الأولاد للاسباب المذكورة في تلك الكتب أيضاً ، وفي كلتا الحالتين نتيجة واحدة ، هي القضاء على حياة انسان .

وقتل الأولاد الذكور عند الجاهليين هو أقل استعمالاً من وأد البنات بكثير . ويظهر انه كان عن عامل ديني في الأغلب ، كما يتبين ذلك من قصة إقدام

---

١ اللسان (١٢/٢٠٥) ، (صادر) ، (دلم) .
٢ الاسراء ، الاية ٣١ ، تفسير الطبري (١٥/٥٧) .
٣ الانعام ، الاية ١٣٧ .
٤ الانعام ، الاية ١٤٠ .
٥ الانعام ، الاية ١٥١ .
٦ بلوغ الارب (٣/٤٤) .
٧ تفسير الطبري (٨/٣٢ وما بعدها) ، بلوغ الارب (٣/٤٤) .
٨ القرطبي ، الجامع (٧/٩١) .

عبد المطلب على قتل ابنه عبدالله بسبب النذر الذي أخذه على نفسه على ما جاء في روايات اهل الأخبار[1] .

وهذا العامل هو الذي يفسر ما جاء في التوراة عن اقدام ابراهيم على ذبح ابنه، ويشير الى وجود هذه العادة عند الإسرائيليين . وسبب قلة قتل الأولاد بالقياس إلى وأد البنات أن الولد عنصر مهم في الحياة الاقتصادية وفي الحياة الاجتماعية حيث يكون عُدة لوالده ولأهله وعشيرته في الحروب ، ثم أن أسره في الحروب لا يعد شائناً مثل أسر البنات. والمرأة بالأسر تكون فريسة للآسرين . والمرأة ليست قادرة كالرجل على اعاشة نفسها وغيرها ولا على الغزو ، ولذلك صارت البنت هدفاً للوأد أكثر من الذكر[2] .

وقد تأثر بعض ذوي القلوب الرقيقة من عادة (وأد البنات) ، وسعوا لإبطالها. وكان بعض الموسرين منهم يفتدي البنات من القتل بدفع تعويض إلى أهلهن ، وأخذهن لتربيتهن . فكان (صعصعة بن ناجية) جدّ الفرزدق الشاعر المعروف، ومن أشراف تميم ، يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقتين عشراوين وجمل[3] . فجاء الإسلام وعنده ثلاثون موؤودة[4] . وذكر أنه فدى أربعمائة جارية، وقيل ثلاثمائة جارية من الجاهلية حتى مجيء الإسلام . وذكر على لسان الفرزدق أنه قال : (أحيا جدّي اثنتين وتسعين موؤودة)[5] . وأنه منع الوئيد في الجاهلية فلم يدع تميماً تئد وهو يقدر على ذلك[6] . وذكر أنه قال للرسول إنه اشترى (٢٨٠) موؤودة ، دفع عن كل واحدة منهن ناقتين عشراوين وجملاً[7] . وأنه كان لا يسمع بموؤودة يراد وأدها ، وهو يتمكن من احيائها ، الا جاء والدها

---

١ القرطبي ، الجامع (٩١/٧) ، الماوردي ، اعلام النبوة (١٢٦) ، بلوغ الارب (٤٦/٣ وما بعدها) ، السيرة الحلبية (٣٩/١) ، البداية والنهاية ، لابن كثير (٢٤٨/٢ وما بعدها) .

٢ الاومة عند العرب (ص ٥٠) .

٣ المستطرف (٧٧/٢) ، القرطبي ، الجامع (١١٧/١٠) وضع لفظة (عمي) في موضع (جدي) في شعر (الفرزدق) ، و (صعصعة) جد الفرزق ، لا عمه ، الاصابة (١٧٩/٢) ، (رقم ٤٠٦٨) .

٤ الاشتقاق (١٤٧/١) ، المرزباني ، معجم الشعراء (٤٨٦/٢) .

٥ أمالي المرتضى (٢٨٤/٢ وما بعدها) ، الاغاني (٢/١٩ وما بعدها) .

٦ أمالي المرتضى (٢٨٤/٢) ، الاغاني (٣/١٩) ، تيسير الوصول (١١٣/٣) .

٧ نهاية الارب (١٢٦/٣ وما بعدها) .

ففداها ، وأنه سأل قومه في ترك الوأد ، فخفف بذلك منه . وعدّ ذلك مكرمة ما سبقه اليها أحد من العرب[1] .

والى (صعصعة بن ناجية) ، أشار الشاعر (الفرزدق) ، مفتخراً به في شعره ، إذ قال :

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[2]

وله أشعار اخرى في هذا المعنى .

وكان (عمرو بن نفيل) يحيي الموؤودة لأجل الإملاق . يقول للرجل إذا أراد ان يفعل ذلك : لا تفعل ! أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها اليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها[3] .

وذكر (القرطبي) في تفسير الآية : (ويجعلون لله البنات ، سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشّر احدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم)[4] . انها (نزلت في خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أنّ الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات)[5] . فنسب فعلهم الوأد الى هذه العقيدة .

ولست استبعد ما ذكره اهل الأخبار من وجود دافع ديني حمل الجاهليين على قتل الأولاد وعلى الوأد ، بأن يكون ذلك من بقايا الشعائر الدينية التي كانت في القديم ، وتقديم الضحايا البشرية الى الآلهة لخير المجتمع وسلامته ، وإرضاء الآلهة هي شعيرة من الشعائر الدينية المعروفة . فليس بمستبعد ان الوأد والقتل من بقايا تلك الشعائر ، والغريب في الوأد انه يكون بالدفن ، بينما العادة في الضحايا التي تقدم الى الآلهة ان تكون بالذبح او بالطعن وبأمثال ذلك ، كي يسيل الدم من

---

١ الاغاني (١٩ ، القسم الاول ، ص ٣ وما بعدها) .

٢ اللسان (٤٤٢/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٥٢٠/٢ وما بعدها) ، (وأد) . وقال :

ومنا من أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاملون ودافع

تفسير الطبري (٤٦/٣٠) .

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والاقارع

٣ السيرة الحلبية (٥٣/١) .

٤ النحل ، الاية ٥٧ وما بعدها .

٥ القرطبي ، الجامع (١١٦/١٠) ، تفسير الخازن (١١٩/٣) ، في تفسير سورة النحل .

الضحية ، والدم هو الغاية من كل ضحية،لأنه الجزء المهم من الضحايا المخصص بالآلهة . وعلى الجملة إن الوأد هو نوع ايضاً من القتل ، وذبح الأولاد وتقديمهم قرابين الى الآلهة Infantcide ، عبادة معروفة عند امم اخرى كانت تمارسها لترضي بذلك الآلهة وتجيب مطالبها [1] .

وعدّ من الوأد (العزل) ، وهو ان يعتزل الرجل امرأته لئلا تنجب له اولاداً . وقد عرف في الاسلام بـ (الوأد الخفي) وبـ (الوأد الأصغر) . سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الوأد الخفي) ، وفي حديث آخر (تلك الموؤودة الصغرى) [2] . وقد بحث عنه في كتب الفقه والتفسير . وروي ان رسول الله قال في ناس : (لقد هممت ان أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يغيلون اولادهم ، ولا يضر اولادهم ذلك شيئاً. ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك الوأد الخفي وهو الموؤودة سئلت[3] . والغيلة إذا اتيت المرأة وهي ترضع ولدها ، وكذلك إذا حملت امه وهي ترضعه[4] . وقد جعل الحديث (العزل) عن المرأة بمنزلة الوأد إلا انه خفي ، لأن من يَعْزِل عن امرأته انما يعزل هرباً من الولد . ولذلك سمّاها الموؤودة الصغرى ، لأن وأد البنات الأحياء الموؤودة الكبرى[5] .

ولم ينفرد العرب بقتل الأولاد وبوأد البنات ، بل نجد ذلك عند غيرهم من الشعوب كذلك ، مثل المصريين واليونان والرومان وشعوب استرالية . أما العوامل التي حملت تلك الشعوب عليها فهي عديدة ، منها عوامل دينية مثل الإعتقاد بحلول الأرواح ، ومنها اقتصادية كالخشية من الفقر ، ومنها ما يتعلق بالصحة كأن يكون المولود ضعيفاً فيقضي عليه الوالدان[6] .

ومن ذيول الفقر وسوء الأوضاع الاقتصادية ، انتشار اللصوصية والاعتداء على أموال الناس ، وابتزازها وقطع الطرق وسلب الناس . وما الذي يفعله الفقير

---

١ Ency. Relig I, p. 669, Smith, Kinship, p. 370.

٢ بلوغ الارب (٣/٥٣) ، النهاية في غريب الحديث (٤/١٨٩) ، اللسان (٣/٤٤٢ وما بعدها) ، (وأد) .

٣ تفسير ابن كثير (٤/٤٧٧) .

٤ تاج العروس (٨/٥٣) ، (غيل) .

٥ اللسان (٣/٤٤٣) ، (وأد) .

٦ Ency. Brita., 12, p. 322.

والمحتاج ومن له منعة في الجسم وضعف شديد في الجيب لاعاشة نفسه وأهله غير اللجوء الى هذه الطرق في الحصول على لقمة العيش ، إن لم يجد له وسيلة كسب أخرى ؟

واللص ، هـو السارق . وذكر أن اللفظة من لغة طيء وبعض الأنصار[1] . وتقابل Listis في اليونانيـة ، بمعنى السارق . لذلك ذهب البعض الى أنها من هذا الأصل[2] .

ونظراً لتستر اللص في حرفته ، وممارسته لها بتكتم وحذر خوفاً من الفضيحة والقبض عليه . مارس عمله بالليل في الغالب ، حيث يرقد الناس . مارسه بخفة ومهارة ، فكنى عنه بكنى . منها : (ابن الليل) ، و (ابن الطريق) ، لأنه يمارس اللصوصية بالليل وعلى الطرق[3] .

ويقال لمن يسرق الدراهم بين أصابعه (القفاف) . يقال : (قف الصيرفي قفوفاً) ، بمعنى سرق الدراهم بين أصابعه[4] . وأظن أن هـذا الاستعمال استعمال مولد ، ولد في الإسلام .

ويعبر عن السطو والاستيلاء عنوة وعن سرقة أموال الناس ، بتعـابير أخرى في اللغات العربية الجنوبية ، منهـا (خرط)[5] ، بمعنى سرق ، و (حلص)[6] ، بمعنى سرق ونهب وسلب ، وكل ما يؤخذ حيلة وسرقة .

وتعدّ السرقة عيباً عند العرب،لأنها تكون دون علم صاحب المسروق وبمغافلته . والمغافلة والاستيلاء على شيء من دون علم صاحبه عيب عندهم ، — وفيـه جبن ونذالة . أما الاستيلاء على شيء عنوة وباستخدام القوة ، فلا يعـدّ نقصاً عندهم ولا شيناً ولا يعدّ سرقة ، لأن السالب قد استعمل حق القوة ، فأخذه بيده من صاحب المال المسلوب . فليس في عمله جبن ولا غدر ولا خيانة . ولذلك فرقوا بين لفظة (سرق) وبين الألفاظ الأخرى التي تعني أخذ مال الغير ، ولكن من

---

١ تاج العروس (٤٣٢/٤) ، (لص) .
٢ غرائب اللغة (٢٦٨) .
٣ اللسان (بنى) ، (٩٢/١٤) .
٤ تاج العروس (٢٢٤/٦) ، (قف) .
٥ South Arabian Inscriptions, p. 436.
٦ المصدر نفسه .

غير تستر ولا تحايل . فقالوا : « السارق عند العرب من جاء مستتراً الى حرز، فأخذ مالاً لغيره . فإن أخذه من ظاهر ، فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس، فإن منع ما في يده ، فهو غاصب »[1] .

ولم تعد (الغارة) سرقة ولا عملاً مشيناً يلحق الشين والسبة بمن يقوم به . بل افتخر بالغارات وعدّ المكثر منها (مغواراً) . لما فيها من جرأة وشجاعة وإقدام وتكون الغارة بالخيل في الغالب ، ولذلك قال علماء اللغة : « أغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل »[2] . وقد عاش قوم على الغارات ، كانوا يغيرون على أحياء العرب ، ويأخذون ما تقع أيديهم عليه ، ومن هؤلاء (عروة بن الورد)، إذ كان يغير بمن معه على أحياء العرب ، فيأخذ ما يجده أمامه ، ليرزق به نفسه وأصحابه . بعد أن انقطعت بهم سبل المعيشة ، وضاقت بهم الدنيا . فاختاروا الغارات والتعرض للقوافل سبباً من أسباب المعيشة والرزق . وذكر أهل الأخبار أسماء رجال عاشوا على الغارات وعلى التربص للمسافرين لسلب ما يحملونه معهم من مال ومتاع .

الأفراح :

الأفراح ، عامة او خاصة . فمن الأفراح العامة ، الأعياد والمناسبات المماثلة ، مثل انتصار في حرب وغزو او تولي ملك عرشاً او سيد رئاسة قبيلة . ومن الخاصة ، الزواج والبرء من مرض ، والعود من سفر ، وأمثال ذلك .

ولما كان العرب في جاهليتهم قبائل وشيعاً وكان الاتصال بينهم صعباً، صارت أعيادهم كثيرة غير متفقة في زمان او مكان ، ذات صفة محلية ، لا يشترك فيها كل عرب جزيرة العرب . وهي مرتبطة بالأصنام في الغالب وبالمواسم التجارية التي تتجلى في انعقاد الأسواق .

ولذلك ، فأنا حين أتحدث عن اعياد اهل الجاهلية فلن أستطيع أن آتي باسم عيد واحد ، أقول إن جميع العرب كانوا يعيّدون ويفرحون جميعهم به ، لما ذكرته من انقسام الجاهليين الى قبائل وشيع وعدم وجود دين واحد لهم ، يجمع

---

١ تاج العروس (٦/٣٧٩) ، (سرق) .
٢ تاج العروس (٣/٤٥٨) ، (غور) .

شملهم . والدين من اهم العوامل المساعدة لظهور الأعياد وجمع شمل المؤمنين به للاحتفال بها . ولذلك فأعياد الجاهليين هي اعياد موضعية تعيّد قبيلة او مدينة او مملكة بعيد ، ولا يعرف عنه بقية العرب اي شيء . أما اعياد اليهود والنصارى والعرب فأمرها أمر آخر ، لأن اليهودية والنصرانية قد حددتا تأريخاً ثابتاً للاعياد فيها ، فصارت معروفة عند أتباع الديانتين يحتفلون بها في الأجل الموقوت .

وكان الحج الى مكة من أهم مواسم العرب في الحجاز ، وهو عيد ، يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل ومختلف الأماكن للتقرب الى الأصنام وللتلاقي في ظروف أمن وسلام لا يحلّ فيها قتال ولا اعتداء ولا لغو ولا فحش . ويقوم اهل مكة بخدمة الوافدين الضيوف ، ضيوف (البيت) ، وتمر ايام خالية من غدر واعتداء وقتل وأخذ بثأر يلبس فيها الناس خير ما عندهم من لباس ويتجلون بأحسن صورة . فإذا انتهت الأيام عادوا الى ديارهم .

وذكر انه كان لأهل (يثرب) يومان يعيّدون فيهما ، يلعبون فيهما ويستأنسون ، هما : النيروز ، والمهرجان . فلما قدم الرسول المدينة أبدلهما بيوم الفطر والأضحى[1] . والظاهر ان اليثربيين أخذوا عيديهما المذكورين من الفرس[2] ، (النيروز) عيد شهير من اعياد الفرس من اصل (نو) بمعنى جديد و (روز) بمعنى يوم ، أي أول يوم من السنة الإيرانية الشمسية . وأما (المهرجان) ، فإنه عيد من أعياد الفرس كذلك ، يعيّد به في الشهر السابع من شهورهم الشمسية ، وهو شهر (مهر) (مهرماه) ، ويدعى العيد (مهركان) . وقد بقي الفرس يحتفلون به في الإسلام ، حتى زماننا هذا ، وورد ذكره في الأشعار[3] .

ولم يذكر أهل الأخبار كيف عيّد أهل (يثرب) بهذين العيدين اللذين هما من أعياد الفرس . ولا ما هي صلتهم بهما .

وذكر أهل الأخبار عيداً سموه (يوم السبع) ، قالوا إنه عيد كان لهم في

---

١ جامع الاصول (١٦٦/١٠) ، عن العيد ، راجع المخصص (١٠٢/١٣) ، اللسان (٣١٨/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٤٣٨/٢) ، المحكم والمحيط الاعظم (٢٣٢/٢) ، معجم مقاييس اللغة (١٨١/٤ ، ١٨٢) ، القاموس (٣١٩/١) ، مقدمة الصحاح (٥١٢/١) .

٢ بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، اللسان (٤١٦/٥) .

٣ بلوغ الارب (٣٥٢/١ وما بعدها) . غرائب اللغة (ص ٢٤٦) .

الجاهلية ، يشتغلون فيه بلهوهم وعيدهم من كل شيء[1] . ولم يتحدثوا بشيء مفصل عنه ، ولم يذكروا أنه عيد مَنْ .

وورد في بيت شعر للنابغة اسم عيد دعاه (السباسب) ، وقد ذكر أهل الأخبار أنه كان عيداً لقوم من العرب في الجاهلية وكانوا يحيّون فيه بالريحان .

رقاق النعال ، طيّبٌ حُجُزاتهم يحيّون بالريحان يوم السَّباسِبِ[2]

وهو في الواقع عيد من أعياد النصارى ، كما أشار الى ذلك أهل الأخبار . إذ ذكروا أنه (عيد للنصارى ويسمونه يوم الشعانين)[3] .

وقد كان هـذا العيد معروفاً في الحجار أيضاً ، ورد في الحديث « إنّ الله تعالى أبدلكم بيـوم السباسب يوم العيد »[4] . وإذا صح ورود هذا الحديث عن الرسول ، كان ذلك دليلاً على أن أهل مكة كانوا قد عرفوا هذا العيد وعيّدوه وربما كانوا أخذوه عن النصرانية .

ولم ترد في نصوص المسند إشارات الى أعياد العرب الجنوبيين ولم ترد اشارات الى الأعياد في النصوص الثمودية أو اللحيانية أو الصفوية . لـذلك لا أستطيع أن أتحدث عن العيد عند العرب الجنوبيين أو اللحيانيين أو الصفويين أو قـوم ثمود . وقد اشار بعض الكتبـة (الكلاسيكيين) الى تعييد النبط وعـرب اعالي الحجاز واحتفائهم فيها بأصنامهم وحجّهم الى معابدهم ، إلا انهم لم يُسمّوا تلك الأعياد بأسمائها .

وقد عيّد يهود جزيرة العرب بأعيادهم ايضاً . وكانوا يحافظون عليها ، لأنها في عقيدتهم عمل من الأعمال الدينية . ولم يكونوا يشتغلون فيهـا [5] ، إذ يرون في

---

١ تاج العروس (٣٧٢/٥) ، (سبـــع) ، بلـــوغ الارب (٣٤٧/١) ، اللسان (١٤٨/٨) .

٢ بلوغ الارب (٣٤٧/١) ، تاج العروس (٤١/٣) ، (الكويت) (سبب) اللسان (سبب) ، ديوان النابغة (٤٥) .

٣ تاج العروس (٢٩٤/١) ، (سبب) .

٤ تاج العروس (٤١/٣) ، (طبعة الكويت) ، (سبب) ، (٢٩٤/١) ، (المطبعة الخيريـة) .

٥ صبح الاعشى (٤٢٦/٢ وما بعدها) .

الخروج عليها خروجاً على الدين الذي منعهم من الاشتغال في ايام السبت والأعياد وحتم عليهم وجوب مراعاة حرمة تلك الأيام مراعاة تامة .

ومن اعياد اليهود التي عرفها الجاهليون عيد رأس السنة ، وعيد الصوم الكبير (الكبور) ، و (عيد المظال) واعياد اخرى .

أما العرب النصارى ، فقد عيّدوا بأعيادهم الدينيـــة ، واحتفلوا بها ، وفي المواضع التي كانت فيها جماعة كبيرة منهم كانت احتفالاتهم بها اوضح وأفرح . وفي الحيرة ، حيث تفشت النصرانية وانتشرت ، كان الناس يتزينون ويتجملون ويلبسون أحسن ما عندهم من حلل في ايام أعيادهم ، مثـــل (عيد السعانين) (عيد الشعانين) ، ويحتفلون في البيع والكنائس والأديرة فرحاً بذكرى العيد ، ويخرجون بصلبانهم[1] .

وذكر ان (يوم السعانين) (يوم الشعانين) ، هو (يوم السباسب) ، العيد الذي مـــرّ ذكره ، وقد كان من أعياد النصارى[2] . وقد اشتقت كلمـــة (السعانين) (الشعانين) من العبرانية ، أخذت من لفظة (هوشعنا) ، التي كان يتهلل بها اليهود أمام المسيح . و (السباسب) : الأغصان ، يريدون منها سعف النخيل الذي قطعه اليهود يوم استقبلوا المسيح في دخوله أورشليم[3] .

وذكر أن (الهنزمر) ، و (الهنزمن) ، و (الهيزمن) ، كلها : عيد من أعياد النصارى أو سائر العجم ، وهي أعجمية . قال الأعشى :

إذا كان هنزمن ورُحْتُ مخشماً[4]

واشتهر (عيد الفصح) ، وهو عيد فِطر النصارى ، إذا أفطروا وأكلـــوا اللحم . وقد أشار اليه الأعشى بقوله :

---

١ الاغاني (٢/٣٠) ، (طبعة ساسي) ، صبح الاعشى (٢/٤١٥ وما بعدها) ، اللسان (١٣/٢٠٩) .

٢ اللسان (١/٤٦٠) ، (صادر) ، (سبب) ، المخصص (١٣/١٠٢) تاج لعروس (٤/٢٩٤) ، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/٢٣٥) .

٣ النصرانية وآدابها ، القسم الثاني ، الجزء الثانـي ، القســم الاول (ص ٢١٥) ، المخصص (١٣/١٠٢) ، ديوان النابغة (ص ١٥) .

٤ المخصص (١٣/١٠٢) ، الاثار الباقية (٢٩٢) ، اللسان (٥/٢٦٧) ، (هنزمر) ، تاج العروس (٣/٦٢٣) ، (هنزمر) .

بهم تقرّب يوم الفصح ضاحية يرجو الإله بما سدّى وما صنعا [1]

وذكر العلماء اسم عيد آخر من أعياد النصارى دعوه (السلاّق) ، ذكروا أنه مشتق من تسلق المسيح الى السماء [2] . والكلمة من أصل إرمي ، هـو Souloqo بمعنى صعود . وقصد به عيد صعود المسيح الى السماء [3] .

وللنصارى عيد آخر اسمه (خميس الفصح) ، وعرف أيضاً بـ (خميس العهد). وقد احتفل به نصارى الحيرة [4] . وذكر علماء اللغة أن للنصارى عيداً من أعيادهم اسمه (دنح) ، وتكلمت به العرب [5] . وهو من أصل إرمي هـو (دنحو) ، بمعنى اشراق وظهور . ويراد به (عيد الغطاس) [6] .

وتضاف اليها الأعياد المحلية ، التي كان يحتفل فيها بأيام القديسين . فقد كان الغساسنة يحتفلون مثلاً في الرصافة بعيد (القديس سرجيوس) . وكـان لنصارى العراق أعيادهم الخاصة بهم حسب مذاهبهم . يكرسونها تخليداً لذكرى قديسيهم .

وقد اشتهر النصارى بين الجاهليين وفي الإسلام بمحافظتهم عـلى أعيادهم حتى ضربوا المثل بأعياد النصارى . فقال العجاج :

واعتاد أرباضاً لها آريّ كما يعود العيد نصراني [7]

والعادة — كما هو شأن كل الأمم — أن يتزين في أيام الأعياد بأحسن الثياب والملابس المفتخرة والحلل المثمنة والـبرود المعجبة ، وأن يظهر الشبان مقـدرتهم وبراعتهم في التسابق عـلى الخيل وفي الألعاب وفي الظهور أمام النساء ، ويلعب الصبيان أنواعاً من الملاعب ، وان يتغنى ويزمر بالدفوف والمزاهر وأمثال ذلك ،

---

١ ديوان الاعشى (القصيدة ١٣ ، سطر ٦٩) ، اللسان (٢/٥٤٥) ، القـاموس (١/٢٤٠) ، مقاييس اللغة (٤/٥٠٧) ، مقدمة الصحاح (١/٣٩١) .

٢ اللسان (١٠/١٦٣) ، (صادر) ، (سلق) .

٣ غرائب اللغة (ص ١٨٨) .

٤ الاغاني (٣/٣٢) ، النصرانية ، القسم الثاني الجزء الثاني القسم الاول (ص ٢١٦)، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) .

٥ اللسان (٢/٤٣٦) ، (دنح) ، تاج العروس (٢/١٣٦) ، (دنح) ، المخصص (١٣/١٠٢) .

٦ غرائب اللغة (١٨١) ، نهاية الارب (١/١٩١ وما بعدها) ، الاثار الباقية (٢٩٢ وما بعدها) .

٧ تاج العروس (٢/٤٣٨) ، (عود) .

لتكسب الأيام بهجتها وروعتها . وكان من عادة أشراف الحيرة اللعب على الخيل بالصوالجة ، وذلك على طريقة العجم[1] .

وقد يخضب الرجال والنساء أيديهم بالخضاب ، ولا سيما (الحناء) . ولكن هذا النوع من إظهار الفرح والسرور ، غالب في الأعراس وفي الختان ، حيث تولم الولائم وتقام الأفراح ، ويخضب بالحناء .

اللعب في العيد :

ومما كان يتلهى به المعيّدون ويتسلّون به ، الغناء ، واللعب بمختلف أنواعه . وفي جملته استخدام السودان للعب بلعبتهم الشهيرة لعبة الدرق والحراب[2] . وقد برع في الغناء نساء ورجال . وذكر ان أهل (يثرب) كانوا اهل طرب وكانوا يحبون الغناء[3] ، وانهم استخدموا (الحبش) للضرب على الدف والغناء في ايام الأعياد . وقد كانوا يلعبون في المسجد بالدرق والحراب ولم ينههم الرسول عن ذلك ، لأن اللعب كان في ايام العيد[4] . وقد غنت جاريتان لـ (عائشة) بإنشاد العرب بغناء بعاث ، كما أذن الرسول للسودان باللعب في مسجده في الحراب والدرق ، ونشطهم بقوله : (يا بني أرفدة)[5] .

الغناء :

وطرب الأعراب ، طرب ساذج يتناسب مع طبيعة بيئاتهم ، وكذلك كان غناؤهم غير معقد ولا متنوع . أما طرب أهل الحضر ، فكان أكثر تعقيداً وتفنناً ولا سيما طرب أهل الحضر الساكنين في ريف العراق وفي بلاد الشأم ، وعند أهل

---

١ الاغاني (١٩/٢) ، (طبعة ساسي) .
٢ نهاية الارب (١٣٨/٤) .
٣ نهاية الارب (١٣٩/٤ وما بعدها) ، (أما كان معكن لهو ، فان الانصار يعجبهم اللهو) ، نهاية الارب (١٤٨/٤) .
٤ القسطلاني ، ارشاد الساري (٢٠/٦) .
٥ القسطلاني ، ارشاد (٢٠٤/٢ وما بعدها) ، (باب اباحة الحراب والدرق يوم العيد) .

اليمن ، فاستعملوا آلات طرب متعددة ، أخذوا بعضها من الأعاجم الذين اتصلوا بهم ، كما أخذوا من أولئك الأقوام ألواناً من ألوان الغناء وفنونه . هذا الاختلاف لا بد أن يقع ،لاختلاف أهل الوبر وأهل المدر في البيئات ، وفي الطباع والعادات .

وللشعر علاقة كبيرة بالغناء . فالغناء هو التغني بالشعر . ولذلك قالوا : تغنى بالشعر ، وفلان يتغنى بفلانـــة إذا صنع فيها شعراً . وله علاقة بالحداء أيضاً . قالوا : حدا به ، إذا عمل فيه شعراً [1] . فالغناء نغم ووزن ويكون لذلك بكلام موزون . وهو الشعر الذي يناسب نغم الغناء . أما النثر ، فلا يناسب طبعه طبع الغناء . ويكون بينهما جفاء . إذ لا يستقيم النثر العربي مع الوزن دائماً . لذلك فلا يمكن للمغني أن يغني به . قال (الجاحظ) : العرب تقطع الألحان الموزونة والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في الوزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون [2] . وذكر أن الغناء من الصوت ما طرب به [3] .

وذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يستمعون الى القيان . وأن فارس كانت تعدّ الغنـــاء أدباً والروم فلسفة . وأن الملوك العرب كانوا يملكون القيان أيضاً . ومنهم أشراف مكة وعلى رأسهم (عبدالله بن جدعان) [4] .

وقد عرف غناء أهل البادية بـ (غناء الأعراب) ، وذلك لاختلافه عن غناء الحضر [5] .

فكان لأهل الحيرة مزاج في الغناء يختلف عن مزاج أهل البادية ، بل حتى عن مزاج غيرهم من الحضر . وذلك للظروف الخاصة التي تحيط بهم ، مثـــل اختلاطهم بالفرس ، ووجود النصرانية والمؤثرات اليونانية فـــيما بينهم . وقد كان في كنائس العباديـــين نصارى الحيرة ، تراتيل وترانيم ، وهي بالطبـــع نوع من الغذاء الروحي ، وقد كان عندهم خمر تبعث على الانشراح والانبساط، وأديرة مزدانة بالخضرة والرياحين والأزهار ، وفيها ماء طيب وغناء رهبـان وراهبات ،

---

١ بلوغ الارب (١/٣٦٩) ، تـــاج العروس (١٠/٢٧٢) ، (غنى) ، اللســـان (١٥/١٣٥) ، (غنى) .
٢ بلوغ الارب (١/٣٦٩) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٧٢) ، (غنى) .
٤ رسائل الجاحظ (٢/١٥٨) .
٥ نهاية الارب (٤/١٩٣) .

فلا عجب إن طرب سكانها وتفننوا في غنائهم،وتميزوا به عن بقية الغناء العربي ، حتى قيل له : غناء أهل الحيرة ، وقد ذكر : انه بين الهزج والنصب ، وهو الى النصب أقرب ، كما كانت لهم لغة امتازت عن لغات العرب الآخرين غنوا بها ، فأكسب غناؤهم طابعاً حيرياً خاصاً[1] .

ومن مرادفات الغنـــاء (السمود) بلغة حمير . وقيل السمود اللهو وبصورة خاصة الغناء[2] .

وللفقهاء في الاسلام آراء في قراءة القرآن . منهم مَنْ جوّز قراءته بالألحان ، ومنهم من جوّز قراءته بالترجيع ، وغير ذلك[3] . والترجيـــع ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به . وقيل الترجيـــع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت[4] .

وأما (العزف) ، فالملاهي ، واللعب بالمعازف ، وهي الدفوف وغيرها مما يضرب . والعازف اللاعب بها والمغني . وعزف الدف صوته . والمعزف ، ضرب من الطنابير يتخذه أهل اليمن وغيرهم ، ويجعل العود معزفاً[5] .

ويعبر عن الاستماع الى الغناء والإنصات لصوت المغني بـ (السماع) . ويحدث السماع طرباً في النفس . وقد صار للكلمـة معنى خاص في الاسلام ، إذ حولت إلى سماع الترانيم الدينية في الغالب ، لذلك لم ينظر اليه نظرة الناس إلى الغناء[6] .

وتغنى أهل الجاهلية في كل المناسبات المبهجة ، وضربوا على آلات الطرب . ومن هذه المناسبات الزواج والعودة من الأسفار ، كما كانوا ينذرون أنه إن تحقق مطلب لهم فإنهم يقيمون مجلس طرب يتغنى فيه : كمناسبة شفـــاء من مرض أو عودة من حرب[7].وكان شبان مكة يذهبون الى السمر ويلهون بسماع الغناء وبالضرب على الدفوف والاستماع الى تزمير المزمار[8] . كما استعمل الغنـاء في الغزو ، وذلك

---

١ الاغاني (٢/١٢١) (طبعة ساسي) .
٢ اللسان (٣/٢١٩) ، نهاية الارب (٤/١٣٤) .
٣ ابن قيم الجوزية (١/١٣٤) ، (في هدية صلى الله عليه وسلم ، في قراءة القرآن)
٤ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .
٥ اللسان (٩/٢٤٤) ، المخصص (١٣/١٢) ، تاج العروس (٦/١٩٧) ، (عزف) .
٦ نهاية الارب (٤/١٦١ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٤/١٤٠ وما بعدها) .
٨ نهاية الارب (٤/١٤٥ وما بعدها) .

لتنشيط الغازين وتحريضهم على القتال . ومن هذا القبيل ما يرتجز به الشجعان عند اللقاء في الحرب . واستعمل في الختان وفي العقيقة والولائم[1] .

آلات الطرب :

وآلات الطرب عند العرب ثلاثة : آلات ذات أوتار كالعود وآلات نفخ ، وآلات ضرب كالصنوج والطبل والدفّ .

والطرب : الفرح والحزن وهو ضد ، أو هو خفة تلحقك سواء تسرك أو تحزنك . فهي تعتري عند شدة الفرح أو الحزن أو الغم. والتطريب التغني . ويقال طرب فلان في غنائه تطريباً إذا رجع صوته وزينه[2] .

والدفّ من آلات الطرب القديمة المشهورة ويستعمل للتعبير عن العواطف في الفرح والسرور . وهو معروف عند الساميين ويسمى (توف) (تف) Toph عند العبرانيين . وقد ورد ذكره في التوراة . وتنقر به النساء أيضاً[3] . وقد كان شائعاً عند العرب ، ينقرون به في أفراحهم . ولما وصل الرسول الى يثرب ، استقبل بفرح عظيم وبالغناء وبنقر الدفوف . وأكثر ما استعمله العرب في المناسبات المفرحة ، كالنكاح . ورافقوا الضرب به أصوات الغناء[4] .

وقد وردت في الشعر الجاهلي أسماء آلات طرب عرفت في ذلك العهد ، فورد في شعر للأعشى : الناي ، والبربط ، والصنج ، وهي آلات عرفت عند الفرس . وقد دعي (الناي) بـ (ناي نرم) .

والناي نرم وبربط ذي نُجة والصنج يبكي شجْوَهُ أن يوضعا[5]

وقد ذكر الجواليقي ان البربط معرّب ، وهو من ملاهي العجم ، شبّه بصدر

---

١ نهاية الارب (٤/١٦٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/٣٥٤) ، (طرب) .
٣ Smith, Diction., Vol. III, p. 1502, Hastings, p. 638, A Relig. Ency. Vol. III, p. 1599.
٤ تاج العروس (٦/١٠٨) ، (دف) .
٥ المعرب (ص ٧٢ ، ٢١٤ ، ٣٤٠) ، العقد الفريد (٦/٢٣) .

البط . والصدر بالفارسية (بر) ، فقيل بربط[1] . وقد ورد في العقـد الفريد : (العود الكران . والمِزْهر أيضاً هو العود ، وهو البربط)[2] . والبربط من آلات الملاهي المشهورة عند الروم .

وعرف الجواليقي (الصنج) فقال : « والصنج الذي تعرفه العرب هو الذي يتخذ من صفر ، يضرب أحدهما بالآخر ... فأما الصنج ذو الأوتار ، فتختص به العجم ، وهما معربان . وسمّوا الأعشى (صناجة العرب) لجودة شعره[3] . وذكر أن اللاعب بالصنج هو (الصنّاج) و (الصنّاجة)[4] .

وجاء الأعشى باسم آلة طرب أخرى من آلات الملاهي عند العجم ، دعاها (الوَنّ) :

بالجُلَّسان وطيب أردانـــه بالوَنّ يضرب لي يكرُّ الإصبعا[5]

ويظهر من هذا البيت أن الونّ آلة طرب ذات أوتار، يضرب عليها بالأصابع. وقد ذكر بعض العلماء أن الونّ : (الصنج الذي يضرب بالأصابع وهو الونج ، كلاهما دخيل مشتق من كلام العجم)[6] . وعرف بعضهم (الونج) بأنه « المعزف أو العود ، فارسي معرب . وأصله بالفارسية وَنَهْ . وقد تكلمت به العرب»[7] . ومنهم من جعل (الونّ) و (الونج) شيئاً واحداً .

ويذكر علماء اللغة أن (العَرْطَبة) هي اسم للعود ، وقيل : الطبل ، وقيل : الطنبور : وقد ورد ذكرها في الحديث مع اسم آلة أخرى من آلات الملاهي ، هي (كوبة)[8] . ويرى العلماء أن (الكوبة) ، الطبل الصغير ،وهي (النرد) ، بلغة اليمن[9] . وذكر أن (المرطبة) طبل الحبشة خاصة[10] ، وان (الكوبـة)

---

١ المعرب (ص ٧١) ، ابن خلكان ، الوفيات (٢/٤٠٠) ، تاج لعروس (٥/١٠٥) .
٢ (٢/٢٧) ، تاج العروس (٥/١٠٤ وما بعدها) ، (البربط) .
٣ المعرب (ص ٢١٤) ، الاغاني (٨/٧٥) . قال الاعشى
ومستجيبا تخال الصنج يسمعه اذا ترجع فيه القينة الفضل
اللسان (٢/٣١١) ، (صنج) ، تاج العروس (٢/٦٧) .
٤ تاج العروس (٢/٦٧) ، (صنج) .
٥ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٦ المعرب ، الحاشية ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٧ المعرب (ص ٣٤٤) ، تاج العروس (٩/٣٦٣) ، (الون) .
٨ المعرب (ص ٢٣٤) ، تاج العروس (١/٣٧٧) ، القاموس (١/١٠٣) .
٩ المعرب (ص ٢٩٥) ،تاج العروس (١/٤٦٤) .
١٠ تاج العروس (١/٣٧٧) ، (عرطبة) .

البربط والشطرنج والطبل الصغير[1] .

وذكر أهل الأخبار أن (النضر بن الحارث بن كلدة) كان يغني بالعود[2] . والعود من جملة آلات الطرب القديمة . وهو (عوديت) عند العبرانيين . وقد أشير اليه في جملة آلات الموسيقى المستعملة في أيام داوود ، وذلك في المزامير[3] . وذكر أن من أسماء العود (الكران) ، وأن (الكرينة) المغنية الضاربة بالعود أو الصنج[4] .

ويعرف الوتر بـ (البم) ، ويقال هو الوتر الغليظ من أوتار المزهر[5] .

و (الناي) من آلات الطرب ، ينفخ فيه،يصنع من الخشب ومن القصب[6] . وذكر ان الناي من أسماء (المزمار) ، وهو من آلات النفخ كذلك. و (القصاب) ، وهو الذي ينفخ في القصب الزمّار[7] .

وأما (الهيرعة) ، فالقصبة ، التي يزمر فيها الراعي[8] .

وذكر أن (القنين) طنبور الحبشة . (وفي الحديث : إنّ الله حرّم الخمر والكوبة والقنين) . والتقنين الضرب بالقنّين . وذكر أن الكوبة : الطبل[9] . وأما (الكبر) ، فهو الطبل ، وقيل طبلٌ له وجه واحد . وقيل هو الطبل ذو الرأسين[10] . ويقال للطنبور (طبن) كذلك[11] .

و (المزمار) و (الزمّارة) : ما يزمر فيه . ويقال للقصبة التي يزمر

---

١ تاج العروس (١/٤٦٤) ، (كوب) .
٢ المعارف (ص ٢٥٠) .
٣ Smith, A Diction III, p. 1304.
٤ قال لبيد :
صعل كسافلة القناة وظرفه وكأن جؤجؤه صفيح كران
تاج العروس (٩/٣٢٠) ، (كرن) ، اللسان (١٣/٣٥٧) ، (كرن) .
٥ شمس العلوم (حـ ١ق ١ ص ١١٨) ، الاغاني (٢/١٢٠) (ساسي) اللسان (٣/٣٦) .
٦ العقد الفريد (٦/٢٣) .
٧ المخصص (١٣/١٥) .
٨ المخصص (١٣/١٤) ، تاج العروس (٥/٥٥٦) ، (هرع) .
٩ اللسان (١٣/٣٤٩) ، تاج العروس (٩/٣١٥) .
١٠ اللسان (٥/١٣٠) ، تفسير الطبري (٢٨/٦٦) .
١١ اللسان (١٣/٢٦٤) .

بها زمّارة[1] . وأما (الرباب) ، فمن آلات اللهو كذلك[2] . وقد اشتهر الغنـاء بالمزمار عند العرب ، وأجادوا فيه .

وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عباداتهم ، وربما استخدموا معه بعض آلات الطرب . وذلك تعبيراً عن بهجتهم وسرورهم بتعبدهم للآلهة وتقرباً اليها بهذا الغناء الذي يدخل السرور الى نفوسها . وقد ذكر المفسرون أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت يصفرون ويصفقون[3] . وإذا صحّ قولهم هذا ، فإنه يعني استعمال نوع من الطرب في حجّهم وطوافهم بالبيت .

وقد تعرض (الجاحظ) لموضوع الغناء العربي وما يختلف به ويمتاز عن غناء الأعاجم ، فقال : « العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون »[4] .

واللحن : الغناء . (وفي الحديث : اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتهـا، وإيّاكم ولحون أهل العشق)[5] . ويراد به التطريب وترجيع الصوت وتحسين القراءة والشعر والغناء . وقد كان اليهود والنصارى يقرأون كتبهم نحواً من ذلك[6] .

أصول الغناء الجاهلي :

ويرجع أهل الأخبار غناء الجاهليين إلى ثلاثة أوجه : النصب،والسناد،والهزج . فأما النصب ، فغناء الركبان وغناء الفتيان والقينات ، ويغني به في المراثي كذلك. وقد دعاه إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، الغناء الجنابي نسبة إلى رجل من كلبٍ يقال له : جناب بن عبدالله بن هبل . وهو الذي يقال له (المراثي) ، ومنه كان أصل الحداء ، وكله يخرج من الطويل في العروض . وأما السناد ، فالثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وأما الهزج ، فالخفيف الذي يرقص عليه

---

١ اللسان (٣٢٧/٤) .
٢ تاج العروس (٤٧٢/٢) .
٣ تفسير الطبري (١٥٧/٩ وما بعدها) .
٤ العمدة (٣١٤) .
٥ اللسان (٣٨٣/١٣) ، (صادر) ، (لحن) .
٦ المصدر نفسه .

ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم[1] .

ويذكر أهل الأخبار ان الأنواع المذكورة كانت غنـــاء العرب ، حتى جاء الاسلام وفتحت العراق ، وجلب الغناء والرقيق من فارس والروم ، فغنّوا الغناء المجـــزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنّوا جميعـــاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[2] . وذكر أيضاً ان الغناء قديم في الفرس والروم ، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد ، وكانوا يسمّونه (الركباني) (الركبانية)[3] . والنشيد رفع الصوت ، ومن المجاز الشعر المتناشد بين القوم ينشده بعضهم بعضاً[4] .

وذكـر (المسعودي) أن غناء العرب النصب ، ثلاثة أجناس : الركباني ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف[5] .

ويرى بعض أهل الأخبار أن أصل الغناء ومعدنه إنما كان في أمهـــات القرى من بلاد العرب ، حيث فشا بها ، وانتشر . ومن هذه مكة والمدينـــة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب . ورووا أن أول من غنى في العرب قينتان لعاد ، يقال لهما الجرادتان[6] . وهما قينتا (معاوية بن بكر الجرهمي) (معاوية بن بكر العملقي) غنّتا لوفد (عاد) بمكة، فشغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله فيما قصدوا ، فهلكت عاد وهم سامدون. فلما رأى الجرهمي ، وهو معاويـــة بن بكر ، أحد العماليق ، ذلك قال : هلك أخوالي (عاد) ، ولو قامت لضيوفي شيئاً ، ظنوا بـي البخل ، فألقى الى الجرادتين شعراً يذكر بمحنة (عاد) ، فأنشدتاه الضيوف . وكان الجرهمي سيد مكة حين وفدت عاد تستقي في قحطها . وكان (قيل ابن عنز) أحد الرؤوس الثلاثة لوفد عاد ، حين ذهبوا في القحط الى مكة يستسقون لقومهم[7] .

---

١ العقد الفريد (٦/٢٧) ، بلوغ الارب (١/٣٦٩ وما بعدها) ، اللسان (٢/٣٩٠ وما بعدها) ، العمدة (٣١٣) ، اللهو والملاهي ، لابن خرداذبه (ص ١٨) .

٢ العمدة (٣١٤) .

٣ نهاية الارب (٤/٢٣٩) .

٤ تاج العروس (٢/٥١٤) ، (نشد) .

٥ مروج (٤/١٣٣) ، (دار الاندلس) .

٦ العقد لفريد (٦/٢٧) .

٧ الامثال للميداني (١/٨٧) ، رسالة الغفران (٢٤٣) ، مروج (٤/١٣٣) ، (دار الاندلس) .

وورد أيضاً أن الجرادتين كانتا مغنيتين للنعمان . كما ورد ذكر الجرادتين وغناءهما لأبي رغال . وورد أنه كان بمكة في الجاهلية قينتان يقال لهما الجرادتان مشهورتان بحسن الصوت[1] . وقيل إنّ الجرادتين كانتا أمتين تتغنيان في الجاهلية وكانتا لعبدالله ابن جُدْعان[2] .

وقد ذكر (أبو العلاء المعري) ، أن العرب تُسمي كـل قينة جرادة ، حملاً على أن قينة في الدهر الأول كانت تدعى الجرادة . واستشهد بهذا البيت :

تغنينا الجراد ونحن نشرب نعلّ الراح خالطها المشور[3]

وذكر بعض العلماء أن (جذيمة الخزاعي بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر) ، المعروف بـ (المصطلق) ، كان من أحسن الناس صوتاً، وقد غنى بعد (الجرادتين) ، غنى غناء النصب[4] . وذكر انه أول من غنى في خزاعة[5] . ثم غنى بعده (ربيعة) ، وهو (ضبيس بن حزام بن حيشة بن سلول ابن كعب بن عمرو بن عامر) الخزاعي ، ثم غنى بعده (زمام بن خطام الكلبي) ، وقد ذكره (الصمة القشيري) ، بقوله :

دعوت زماماً للهوى فأجابني وأي فتى للّهو بعد زمام[6]

وذكر (المسعودي) ، أن غناء أهل اليمن بالمعازف وإيقاعها جنس واحد ، وغناؤهم جنسان : حنفي ، وحميري . والحنفي أحسنهما[7] ، فهذا هو غناء أهـل اليمن . ورجع بعض أهل الأخبار غناء أهل اليمن إلى (علس بن زيد ذي جدن) ، زعموا انـه أول من تغنى باليمن[8] . وزعموا أنـه كان من ملوك اليمن ، لقب بذي جدن ، لجمال صوته . فالجدن الصوت عند أهل اليمن[9] .

---

١ اللسان (٣/١١٨) ، (صادر) ، (جرد) ، تاج العروس (٢/٣١٨) (جرد) .
٢ الاغاني (٨/٢) (طبعة ساسي) .
٣ رسالة الغفران (٢٤٤) .
٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
٥ تاج العروس (٦/٤١٢) .
٦ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
٧ مروج (٤/١٣٤) .
٨ الاغاني (٤/٣٧) .
٩ اللهو والملاهي (٢٠) .

وذكر ان قريشاً لم تكن تعرف من الغناء ، إلا النصب ، حتى قدم (النضر ابن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي) العراق، فتعلم ضرب العود وغناء العباديين ، فقدم مكة ، فعلّم أهلها ، فاتخذوا القيان[1] .

ويظهر من غربلة ما ورد في الأخبار عن الغناء ، أن المراد به ، تلحين ما يراد التغني به وتطريبه ، حتى يثير الطرب في نفوس السامعين ، لا سيما إذا اقترن بآلة من آلات الطرب . ونادراً ما يكون غناء دون (موسيقى) . فالموسيقى تصاحب الغناء . والغناء : تلحين ما يراد التغني به بتقطيعه قطعاً موزونة تكون نغمة،يوقع على كل صوت منها بإيقاع يناسبه ، فيزيده لذة في السماع[2] .

وذهب (المسعودي) الى أن أول من اتخذ القيان من العرب ، أهل يثرب . أخذوا ذلك من بقايا عاد[3] . بينما يذكر الأخباريون ، أن أول من غنى من العرب العاربة الجرادتان ، وكانتا قينتين على عهد عاد ، لمعاوية بن بكـــر العمليقي[4] . وفي جملة من قال ذلك (ابن خرداذبه) ، الذي اعتمد (المسعودي) عليه في موضوع الغناء ، ونقل من كتابه (اللهو والملاهي) بالنص[5] .

والقينة عند علماء اللغة : الأمة المغنية ، وذكروا أنها كلمة هذلية . وقال بعض آخر : مغنية كانت أو غير مغنية . وإنما قيل للمغنية قينة ، إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر[6] . والظاهر أنها من الألفـــاظ المعربة ، فالغناء في لغـــة (بني إرم) هو (قنتـو) Qinto والمغنية (قينة) من الغناء (قنتو)[7] .

وذكر أن من أسماء (القينة) (الزمّارة) و (الزامرة) ، وقيـــل للمغني (الزمّار) ، وذلك من التزمير بالمزمار[8] .

---

١ كتاب اللهو والملاهي (١٩) ، مروج الذهب (٤/١٣٤) ، المخصص (٢/١٤٢ وما بعدها) ، (٤/٥٤) .
٢ مقدمة ابن خلدون (٧٥٨) ، (دار الكتاب ، بيروت ١٩٦١ م) ، اللسان (١٥/١٣٥)
٣ مروج الذهب (٤/١٣٤) ، كتاب اللهو والملاهي (١٩) .
٤ كتاب اللهو والملاهي (١٨) .
٥ راجع كتاب اللهو والملاهي وقارنه بكتاب مروج الذهب ، للمسعودي (٤/١٣١ وما بعدها) .
٦ اللسان (١٣/٣٥١ وما بعدها) .
٧ غرائب اللغة (٢٠٢) .
٨ اللسان (٤/٣٢٧) ، (ذمر) .

ويقال للمغنية (الكرينة) أيضاً[1] . وقد وردت اللفظة في شعر لبيد :

بصبوح صافية وجَذْب كرينة بمـوترٍ تَـأتاله ابهامهـا[2]

وذكر أن (الكرينة) المغنّية الضاربة بالعود أو الصنج ، والضاربة بـ (الكران). و (الكران) هو العود[3] .

وذهب أهل الأخبار الى أن الغناء محدث في العرب ، أخذ من (الحداء) . وكان الحداء في العرب قبل الغناء . وكان أول السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء . اشتقه (حباب بن عبدالله الكلبي) ، فغنّى النصب[4] .

وقد أُشير الى غناء النصب في كلام ينسب الى عبدالله بن عمر بن الخطّاب ، فذكر أنه قال : مرّ بنا ابن الخطاب ، وأنا وعاصم بن عمر نغني غناء النصب، فقال : أعيدا عليّ[5] . وورد أن أنس بن مالك سمع أخاه البرّاء بن مالك يغني، فقال : ما هذا ؟ قال : أبيات عربية أنصبها نصباً[6] . مما يدلّ عـلى أن غناء النصب إنما ورد من هذا المعنى. كذلك أشير الى الحداء في خبر ينسب الى ابن جريج، قال : سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء[7] . وقد أخرج هذا الخبر الحداء من الغناء .

وعرف بعض العلماء النصب : أنه غناء الرُكبان . وعرف أنه (العقيرة) ، يقال : رفع عقيرته إذا غنى النصب . وعرف أنه ضرب من أغاني العرب. (وفي حديث نائل،مولى عثمان : فقلنا لرباح بن المغترف : لو نصبت لنا نصب العرب أي لو تغنيت ، وفي الصحاح : لو غنيت لنا غناء العرب . (وكان رباح بن المغترف يحسن غناء النصب ، وهو ضرب من أغاني العرب ، شبيه الحداء،وقيل:

---

١ العقد الفريد (٦/٢٧) ، كتاب اللهو والملاهي (ص ١٦) .
٢ شرح القصائد العشر ، للتبريزي (٢١٤ وما بعدها) ، (٢٩٥) (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) .
٣ العقد الفريد (٦/٢٧) .
٤ اللهو والملاهي (١٨) .
٥ العقد الفريد (٦/٨) .
٦ المصدر نفسه .
٧ العقد الفريد (٦/٩) ، تاج العروس (١/٤٨٥) .

هو الذي أحكم من النشيد ، وأقيم لحنه ووزنه)[1] . وعرف النصب : انه ضرب من مغاني العرب أرق من الحداء[2] .

وقد أشار أهل الأخبار إلى أن العرب كانت (تتغنى بالركباني ، إذا ركبت الإبل ، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها ، فلما نزل القرآن أحب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن يكون هجّيراهم بالقرآن مكان التغني بالركباني، وأول من قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة ، فورثه عند عبيد الله بن عمر، ولذلك يقال قرأت العمري ، وأخذ ذلك عنه سعيد العلاّف الإباضي)[3] . وذكر أن (عمر) سمع (عبد الرحمن بن عوف) وهو يتغنى وينشد بالركبانية ، وهو غناء يحدى به الركاب[4] .

والحداء ، هو من أقدم أنواع الغناء عند العرب،يغنى به في الأسفار خاصة ، ولا زال على مكانته ومقامه في البادية حتى اليوم . ويتغنى به في المناسبات المحزنة أيضاً لملاءمة نغمته مع الحزن . وقد كان للرسول حادي هو (البرّاء بن مالك بن النضر الأنصاري) وكان حـداءً للرجال[5] . وكان له حـدّاء آخر ، يقال له (أنجشة الحادي) وكان جميل الصوت أسود ، وكان يحـدو للنساء[6] ، نساء النبي ، وكان غلاماً للرسول[7] . وذكر أن النبي (قال لقوم من بني غفار) سمع حاديهم بطريق مكة ليلاً ، فقـال لهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا فضرب بها كفّ غلامه، فعدا الغلام في الوادي وهو يصيح : وايداه ، وايداه ، فسمعت الإبل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لانتفعت به الإبل واجتمعت ، فاشتق الحداء)[8] .

وذكر بعض أهل الأخبار « أن أول من أخذ في ترجيعه الحداء (مضر بن نزار)[9]

---

١ اللسان (٧٦٢/١) ، (نصب) .
٢ تاج العروس (٤٨٦/١) ، (نصب) .
٣ اللسان (١٣٧/١٥) .
٤ الروض (٢١٩/٢) .
٥ الاصابة (١٤٣/١) ، اللسان (١٦٨/١٤) .
٦ الاصابة (٦٧/١) ، الاستيعاب (١١٧/١) (حاشية على الاصابة) .
٧ ارشاد الساري (٩٢/٩) .
٨ العمدة (٣١٤ وما بعدها) ، المعارف (٢٤١) ، الروض الانف (٦٠/١) ، العقد الفريد (٢٧/٦) ، ارشاد الساري (٨٨/٩) .
٩ مروج الذهب (١٥٩/٤) .

فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده ، فحملوه وهو يقول : وايداه وايداه،وكان أحسن الله جرماً وصوتاً ، فأصغت الإبل اليه وجَدَّت في السير ، فجعلت العرب مثالاً لقوله هايدا هايدا يحدون به الإبل »[1] . وللأخباريين كلام آخر من هـذا النوع عن الحـداء[2] . يتفق كله في أن هذا النوع من الغناء كان من خصائص غناء مضر[3] .

وكان (عـامر بن سنان الأكوع بن عبدالله بن قشير الأسلمي) المعروف بـ (ابن الأكوع) رجلاً شاعراً وراجزاً ، وكان يحسن الحداء ، فطلب منـه أصحاب الرسول أثناء سيرهم الى خيبر أن يحدو بهم . فسمع الرسول حداءه[4] .

وهناك أخبار أخرى يفهم منها أن العرب لم تدخل الحداء في الغناء ، وإنمـا ذكرته معه ، على أنه باب خاص[5] . والعادة أن يجعل المسافرون معهم حادياً أو جملة حداة يحدون بهم في السفر . وكان أبو هريرة أحد الصحابة المحـدثين عن رسول الله ، يحدو لركب بسرة بنت غزوان[6] .

والحداء إذن ضرب مخصوص من الغناء ، ويكون بالرجز غالباً لأن طبيعـة الرجز تلائم هذا النوع من الغناء[7] . ويذكر (المسعودي) أن الحـداء كان في العرب قبل الغناء . وكان أولَ السماع والترجيع في العرب ، ثم اشتق الغناء من الحداء[8] . فالحداء متقدم على الغناء إذن،وهو الباب الذي ولج العرب منه الى الغناء.

والحداء ، هو في الواقع غناء أهل البادية ، وفي ارجاع أهل الأخبار أصلـه الى (مضر) أو غيره من الرجال صحة ، إذا اعتبرنا ان (مضر) أو غـيره كناية عن الأعراب . لأن هذا النوع من الغناء مما يتناسب مع لحن البوادي ونغمها الحزينة البسيطة التي تطرب بها طبيعة البداوة نفس الأعراب . ولا زال غناء أهل البادية متأثراً بهذه الضربات من العزف ، التي تعزفها البادية للتخفيف عـن كآبة

---

١ العمدة (٣١٤) .
٢ المعارف (٢٤١) ، ، العمدة (٣١٤) .
٣ العقد الفريد (٦/٢٧) ، الروض (١/٦٠) ، باوغ الارب (١/٣٦٩ وما بعدها) .
٤ ارشاد الساري (٩/٩٠ وما بعدها) .
٥ المعارف (ص ٢٣٢) ، اللسان (١٤/١٦٨) .
٦ المعارف (ص ١٢٠) ، نهاية الارب (٤/١٦٤) .
٧ ارشاد الساري (٩/٨٨) .
٨ مروج (٢/١٣٣) ، (دار الاندلس) .

الطبيعة وللتعبير عن الروح الحزينة التي تحملها هذه الطبيعة من نشوئها ونموهـا في هذه الفيافي الساحقة الشاسعة التي لا ترى حدودها العين ، والتي ترشق الأوجـه برشقات من الرمال ، تسدّ العين ، حتى لا تتجاسر فتمدّ بصرها لتسترق سرّ هذه المحيطات ذات الأمواج المتفاوتة في الإرتفاع من تموّجات الرمال .

وقد تخصص أناس من رجال ونساء بالغناء ، واتخذوه حرفة لهم يتكسبون بها . والمغنون المحترفون هم من سواد الناس ، ومن الرقيق . لأن من طبـع الشريف والحرّ الابتعاد عنه . وقد احترف هؤلاء الغناء وتعيشوا عليه . فكانوا يدعون الى إحياء الحفلات في مقابل أجر يدفع لهم . وقد كان من بينهم من يغني بلغتـه كالرومية والحبشية ، ولهذا فلم يكن من المستبعد سماع غناء أجنبي في موضع مثل مكة أو يثرب لوجود رقيق فيه .

وقد تغنى بشعر بعض الشعراء الجاهليين ، ومن هـؤلاء شعر الشاعر (مُرّة ابن الرواغ) . ويذكر أهل الأخبـار ان (امرىء القيس بن حجر) ، كان يأمر قيانه أن يغنين بشعره . وان قيان الملوك كن يغنين به أيضاً[1] ، وقد كان النخاسون في الجاهلية يعلمون المغنيات الشعر ، للتغني به .

وقد كان أغنياء مكة والقرى الأخرى يملكون القيان ، ومنهم من كـان يملك عدداً منهن . مثل (عبدالله بن جُدْعان) . وكان (لمقيس بن عبـد قيس بن قيس بن عدي) ، قينتان تغنيان ، وكان بيته مألفاً لشباب قريش ينفقون عنده ويشربون ويتهاتكون يبقون على ذلك ليالي وأياماً[2] .

ومن القيان : (هريرة) التي شبب بها (الأعشى) . وهي أمة سوداء، لحسان ابن عمرو بن مرثد . ولها أخت اسمها (خليدة) : كانت قينة كذلك . وقد ورد في رواية أخرى ، أنهما كانتا قينتين لـ (بشر بن عمرو بن مرثد) ، وكانتـا تغنّيانه النصب . وقدم بهما اليمامة ، لما هرب من (النعمان)[3] .

وذكر انه كان لـ (عائشة) جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعاث[4] .

---

١ الامدي ، المؤتلف (ص ١٢٧) ، معجم الشعراء (ص ٣٨٢) .
٢ شرح ديوان حسان (٤٧) (البرقوقي) .
٣ الاغاني (٩/١١٣) .
٤ اللسان (١٥/١٣٧) .

ومن أهل الحداء حاد يقال له (أنجشة) أشرت اليه قبل قليل ، وكان حسن الصوت . وهو من الصحابة . (وفي الحديث : أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، قال لأنجشة وهو يحدو بالنساء ، رفقاً بالقوارير ... وكان أنجشة يحدو بهن ركابهن ويرتجز بنسيب الشعر والرجز وراءهن)[1] . وهو من أصل حبشي ، يكنى (أبا مارية)[2] . وكان يحدو بالنساء ، وكان البرّاء بن مالك يحدو بالرجال[3] . وربما كان على النصرانية قبل دخوله في الاسلام .

وكان (البرّاء بن مالك بن النضر الأنصاري) ، حسن الصوت كذلك . وكان يرجز لرسول الله في بعض أسفاره ، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل. وذكر انه كان حادي الرجال . وكان يتغنى بالشعر . وقد شهد المشاهد مع رسول الله إلا بدراً ، وله يوم اليمامة أخبار . واستشهد في أيام عمر[4] . وكان من الشجعان[5] .

ومما يلفت النظر ان الأخباريين حين يتحدثون عن مجلس طرب وشرب وغناء، يذكرون أن صاحب المجلس أمر قينتين له بأن تغنيا له أولهم ، وذلك في الغالب ، ولم يذكروا قينة أو أكثر إلا في الأقل ، حتى ليشعر القارىء أن العرف في ذلك الوقت أن تكون للسادة وللاشراف قينتين تغنيان تكونان في البيت بصورة دائمة . فلما اغتاظ (أبو براء عامر بن مالك بن جعفر) مما قيل عنه ، وأراد الترفيه عن نفسه قبل أن يقتل نفسه (دعا قينيتين له فشرب وغنتاه)[6] . وكان (عبد الله ابن جُدْعان) إذا أراد سماع الغناء أمر قينتين له تسميان (الجرادتين) بالغناء[7] .

ولا يستبعد استخدام الجاهليين آلات الطرب والغناء في معابدهم وفي أعيادهم . فقد كان الساميون كالعبرانيين يستعملون أنواع آلات الموسيقى في معابدهم وفي أعيادهم تقرباً إلى آلهتهم[8] . وقد وصلت الينا أسماء بعض آلات الطرب التي استعملها الجاهليون ولكن معارفنا لا تزال مع ذلك قليلة ضعيفة . وستزيد ولا شك

---

١ اللسان (٥/٨٧ وما بعدها) .
٢ الاصابة (١/٨٠) ، (رقم ٢٦١) .
٣ الاستيعاب (١/١٢١ وما بعدها) ، (حاشية على الاصابة) .
٤ الاصابة (١/١٤٧) ، (رقم ٦٢٠) .
٥ الاستيعاب (١/١٤١ وما بعدها) .
٦ شرح ديوان لبيد (ص ٦١) .
٧ الاغاني (٨/٢) ، البيان والتبيين (١/١٧) (لجنة) .
٨ A Relig. Ency., Vol. III, p. 1598.

متى قام الآثاريون بالتنقيب تنقيباً علمياً عميقاً في مواضع الآثار في مختلف الأنحاء.

أما العرب في العراق وفي بلاد الشأم ، فقد تأثروا بالغناء الأعجمي، واستعملوا آلات الطرب المعروفة عند الفرس واليونان ، وسمعوا الغناء بالفارسية والروميـة واستحسنوه ، بل استحسنه أناس من عرب الحجاز أيضاً . سمع حسان بن ثابت غناء (رائقة) ، فلما عاد الى بيته ، تذكر ليلة قضاها في الجاهلية مع (جبلـة ابن الأيهم) ، لم ينسها قط ، قال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمسٌ يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن اليـه اياس بن قبيصة . وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشرب ، فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضـة ، وأوقد له العود المندّى إن كان شاتياً،وإن كان صائفاً بطّن بالثلج ، واتى هو واصحابه بكساء صيفية ينفصل هو واصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء بفراء الفَنَك وما اشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلاّ وخلع عليّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم وعلى غيري من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبـذل من غير مسألة »[1] .

وإذا كان الغناء للطرب بوجـه عام ، فإن هنالك نوعاً آخـر من الغناء هو (الترنيم) ، وهو تطريب الصوت ، ويستخدم في الغالب في التلاوة ، أي تلاوة الأدعية والتراتيل الدينية. فقد كان الجاهليون يرتلون أغانيهم الدينية أمام أصنامهم، كما فعل ذلك اليهود والنصارى ويترنمون بها . وتصحب هذه الترانيم آلات موسيقية لتعزف الألحان المناسبة الموافقة لها .

وذكر علماء العربية أن (الرنم) المغنّيات المجيدات ، والرنم الصوت . والرنيم والترنيم ترجيع الصوت وتطريبه[2] . وعرف (الترجيع) بـ (ترديد الصوت في الحلق في قراءة أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به) . وقيل : (الترجيـع هو تقارب ضروب الحركات في الصوت)[3] . وقد كان الجاهليون يرجعون الشعر ، بأن يقرأونه على الألحان والتطريب والايقاع ليؤثر في السامعين .

---

١ الاغاني (١٤/١٦) .

٢ تاج العروس (٣٢٠/٨) ، (رنم) ، ارشاد الساري ، للقسطلاني (٤٨٠/٧ ومـا بعدها) اللسان (٢٥٦/١٢) .

٣ تاج العروس (٣٥١/٥) ، (رجع) .

أما المناسبات المحزنة كالموت والكآبة ، فقد كانوا يستعملون فيها نغمات حزينة وهادئة للتخفيف من شدة الحزن والكآبة والألم . وقد كانت لهم في ذلك ألحان وأوزان ونغم .

وأما (الهزج) ، فالخفيف الذي يرقص عليه ، ويمشي بالدف والمزمار ، فيطرب ويستخف الحليم[1] . وذكر أن الهزج من الأغاني ما فيه ترنم ، وصوت مطرب ، وقيل : هو صوت فيه بحح ، وصوت دقيق مع ارتفاع . وكل كلام متدارك متقارب في خفة هزج[2] . فهو الخفيف المطرب من الغناء .

وكانت المناسبات المفرحة مثل الزواج تقترن بالعزف والغناء. روي أن رسول الله لما كان غلاماً يرعى غنماً ومعه غلام من قريش يرعى معه كذلك قال له : « لو أنك أبصرت غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشباب ، قال : أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أول دار من ديار مكة ، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير . فقلت ما هذا ؟ فقالوا : فلان تزوج فلانة بنت فلان . فجلست أنظر اليهم »[3] . وذكر أن من عادة أهل مكة أن يفعلوا ذلك عند الزواج. وفعل أهل يثرب ذلك أيضاً في مثل هذه المناسبات وفي مناسبات الفرح الأخرى[4] .

الرقص :

والرقص وجه آخر من وجوه التسلية والتفريج عن النفس . يرقصون في المناسبات ، مثل الأعراس والأفراح الأخرى . وهو في الغالب ارتفاع وانخفاض ، وقد يكون ذلك هو الذي حمل علماء اللغة على تفسير الرقص أنه ارتفاع وانخفاض[5] . والراقصون هم من الشباب في الغالب ، أما الشيوخ ، فكانوا لا يرقصون ، لعدم ملاءمة الرقص مع جلال السن .

---

١ العمدة (٢/٣١٤) ، كتاب اللهو والملاهي ، لابن خرداذبه (ص ١٦ وما بعدها) ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت) .
٢ تاج العروس (٢/١١٦) ، (هزج) .
٣ نهاية الارب (٤/١٤٥) .
٤ رغبة الآمل من كتاب الكامل (٦/٩٠٨) ، (للمرصفي) .
٥ اللسان (٧/٤٢ وما بعدها) ، تاج العروس (٤/٣٩٩) ، (رقص) .

وذكر علماء اللغة أن من الرقص نوع يقال له (الدرقلة) . وذكر بعض آخر أن (الدرقلة) الرقص . « قال محمد بن إسحاق : قدم فتية من الحبشة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يدرقلون ، أي يرقصون » . وقيل : الدرقلة : لعبة للعجم معربة[1] . وهي من الحبشة على بعض آراء علماء اللغة . ونطقت بـ (الدركلة) كذلك . وذكروا أن الرسول (مرّ على أصحاب الدركلة فقال: جِدّوا يا بني أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة)[2] . قيل إنّ الدركلة ضرب من الرقص ولعبة للعجم معربة .

وقد عرف الحبش بحبّهم للرقص . وكان أهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز إذا أرادوا الاحتفال بعرس أو ختان أو أية مناسبة مفرحة أخرى أحضروا الحبش للرقص والغناء على طريقتهم الخاصة . وورد في الحديث أنه قال للحبشة دونكم يا بني أرفدة . وقيل هم جنس من الحبشة يرقصون . وقيل (أرفده) لقب لهم. هو اسم أبيهم الأقدم يعرفون به[3] .

وقد كان الرقص عند الشعوب الساميّة نوعاً من أنواع التعبير عن الفرح والشكر تجاه آلهتهم[4] . ويدخل في جملة الشعائر الدينية . ولا يستبعد أن يكون الجاهليون مثل غيرهم قد رقصوا لآلهتهم في المناسبات الدينية ، تعبيراً عن شكرهم للآلهة . ولكن معارفنا عن ذلك قليلة جداً ، فلا نجد في الكتابات الجاهلية أية إشارة اليه، أما أخبار أهل الأخبار عن الرقص عند الجاهليين ، فهي قليلة . ولا أستبعد أن يكون السعي بين الصفا والمروة كان رقصاً في الأصل فكان الساعون يرقصون ويغنون أغاني دينية ، في تمجيد رب البيت والتقرب اليه . كما كانوا يرقصون في المعابد الأخرى .

ويعدّ يوم وصول الملوك والأمراء والسادات الى مكان ما ، يوماً مشهوداً يجلب الفرح والسرور الى قلوب الناس ، ويعطي ذلك اليوم بهجة وسروراً . وكانوا يستقبلون كبار الوافدين عند قدومهم بأصناف اللهو . ويخرج (المقلسون) بالسيوف والريحان وبالدفوف والغناء . ولذلك قيل (القلس) و (التقليس) : الضرب

---

١ اللسان (١١/٢٤٤) .
٢ اللسان (١١/٢٤٤) .
٣ اللسان (٣/١٨٣) ، (رفد) ، تاج العروس (٢/٣٥٦) ، (رفد) .
٤ قاموس الكتاب المقدس (١/٤٨٩) ، (رقص) .

بالدفّ والغناء . و (المقلس) : الذي يلعب بين يدي الأمير . ولما قدم (عمر) الشأم لقيه المقلسون بالسيوف والريحان . والقلس : الرقص في غناء ، وقيـــل هو الغناء الجيد[1] .

ألعاب مسلية :

وقطع الجاهليون وقتهم ببعض الألعاب المسلّية ، مثل (النرد) وقـــد أشير اليه في الحديث بـ (النردشير) وبـ (النرد) . وذكر بعض العلماء أن (النرد) هو (الكوبة) ، بلغـــة أهل اليمن[2] . وأشير اليه في حديث أهل الأخبار عن (امرىء القيس الكندي) وعن الناعي الذي أوصل الخبر اليه ، فقالوا : « فوجده مع نديم له يشرب الخمر ، ويلاعبه بالنرد ، فقال له : قتل حجر ، فلم يلتفت الى قوله ، وأمسك نديمه ، فقال له امرؤ القيس : اضرب ، فضرب ، حتّى إذا فرغ ، قال : ما كنت لأفسد عليك دستك »[3] والدست مصطلح فـارسي ، أي ما كنت لأفسد عليك لعبك .

وكان في الجاهلية إذا خاب قدح أحدهم ولم ينل مرامه قيل تمّ عليه الدست. وقيل الدست : هو دست القمار ، كان في اصطلاح الجاهلية . وفلان حسن الدست : شطرنجي حاذق[4] .

واللعب اللهو والتسلية ، وهو أنواع . كما ان لكل عمر نوع من اللعب يليق به . و (التلعابة) و (التلعاب) الكثير اللعب ، والكثير المـــزح والمداعبة . و (الشطرنج) لعبة ، والنرد لعبة كذلك ، وكل ملعوب به فهو لعبة . و (اللعبة) الأحمق الذي يسخر به ويلعب ويطرد عليه[5] .

ويعبر عن اللهو واللعب بلفظة (الديدن) ، و (الدن) ، و (الد) ،

---

١ اللسان (٦/١٨٠) ، (صادر) ، (قلس) ، تاج العروس (٤/٢٢١ وما بعدها) ، (قلس) .

٢ صحيح مسلم (٢/١٩٩) ، الجواليقي (ص ٣٣١) ، تنوير الحوالك ، (٢/٢٣٧)، اللسان (٣/٤٢١) .

٣ الاغاني (٨/٦٥) (طبعة ساسي) غرائب اللغة (ص ٢٢٧) .

٤ تاج العروس (١/٥٤٣) ، (دست) .

٥ تاج العروس (١/٤٧١) ، (لعب) .

و (الددا) ، و (ديد) ، و (ديدان) ، و (الديدبون) . وفي الحديث : (ما أنا من دد ولا الددُ مني) . أي ما أنا في شيء من اللهو واللعب. وورد لعديّ بن زيد العباديّ :

أيها القلب تعلل بددن إن همّي في سماع وأذن

وذكر أن الدد : هو الضرب بالأصابع في اللعب ، وأن الديدبون : اللهو[1].

وللأطفال ألعاب تتناسب مع سنهم ، منها : (الجماح) ، وهي سهيم يلعب به ، يجعلون مكان زجّه طيناً[2] ، و (البقيري)[3] ، ولعبة (الغراب) ، وقد ذكر أن صبياناً كانوا يلعبونها ليلاً[4] . و (الكعاب) و (الفيال) ، وهي لعبة كانوا يلعبون بها ، يجمعون تراباً ويخبئون فيها خبيئاً ، ويقولون لصاحبه في أي الجانبين هو[5] ؟.

ومن ألعاب الصبيان لعبة يقال لها (الدخرجاء) و (الدحريجاء) ، وفيها قال الشاعر :

عليك الدحريجاء فاتبع صحابها سيكفيك زين الحرب أروع ماجد[6]

ومن ألعاب الصبيان ، لعبة (عظم وضاح) (عظيم وضاح) ، أن يأخذ بالليل عظماً أبيض ، فيرمونه في ظلمة الليل ، ثم يتفرقون في طلبه ، فمن وجده فله القمر . وذكر أن من وجده يركب الفريق الآخر من الموضع الذي وجدوه فيه الى الموضع الذي رموا به منه . وورد في الحديث أن النبي لعب وهو صغير بعظم وضاح[7].

و (البُقَيْري) : أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله ، ثم

---

١ اللسان (١٣/١٥١ وما بعدها) ، (ددن) ، تاج العروس (٩/١٩٨) ، (الددن) .
٢ الاغاني (٨/٧٥) (طبعة ساسي) .
٣ شمس العلوم الجزء الاول ، القسم الاول (ص ١٨٠) .
٤ المعارف (ص ١٢١) .
٥ شرح ديوان لبيد (ص ٨٠) .
٦ الاشتقاق (٢/٣٠٦) .
٧ الحيوان (٦/١٤٥) ، (هارون) .

يقول لصاحبه : اشته في نفسك ، فيصيب ويخطىء . وذكر أنهم يأتون الى موضع قد خبىء لهم فيه شيء ، فيضربون بأيديهم بلا حفر يطلبونه[1] .

والخطرة ، أن يعملوا مخراقاً ، ثم يرمى به واحد منهم من خلفه الى الفريق الآخر ، فإن عجزوا عن أخذه رموا به اليهم ، فإن أخذوه ركبوهم[2] . وأما (الدارة) ، ويقال لها (الخراج) ، أن يمسك أحدهم شيئاً بيده ويقول لسائرهم أخرجوا ما في يدي . و (الشحمة) ، أنه يمضي واحد من أحد الفريقين بغلام فيتنحّون ناحية ثم يقبلون ، ويستقبلهم الآخرون ، فإن منعوا الغلام حتى يصيروا الى الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه،ويدفع الغلام اليهم ، وإن لم يمنعوه ركبوهم، وهذا كلّه يكون في ليالي الصيف ، عن غب ربيع مخصب[3] .

وسابق الأطفال والشبان بعضهم بعضاً . سابقوا على الخيل وسابقوا على الأقدام فكان السابق يفخر على المسبوقين ، وربما خاطروا في السباق ، فيأخذ السابق (الخطر)،وهو ما جعلوه رهناً للسابق . وصارعوا . واعتبروا المصارعة رياضة وفخراً . فالقوي يصرع الضعيف . ولهذا كان المصارع الذي لا يصرع يتباهى ويفخر بنفسه على غيره.وقد سابق رسول الله بنفسه على الأقدام[4] . ويقال للمصارعة (المراوغة) ، لما فيها من مراوغة الواحد منهما للآخر ، للتغلب عليه[5] . وقد صارع النبي (ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب) ، فصرعه مرتين. (وكان شديداً . يحكى أنه كان يقف على جلد بعير لين جديد حين سلخه ، فيجذبه من تحته عشرة فيتمزق الجلد ولا يتزحزح هو عن مكانه)[6] .

ومن ألعاب الصبيان (الطبن) ، وهو خط مستدير يلعب به الصبيان[7] . و (الشعارير) وهي من لعب الصبيان[8] . وأما البنات فالتماثيل الصغار التي يلعب

---

١ الحيوان (١٤٥/٦) ، (هارون) .
٢ الحيوان (١٤٥/٦ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ الحيوان (١٤٦/٦) ، (هارون) .
٤ زاد المعاد (٤١/١) .
٥ تاج العروس (١٤/٦) ، (روغ) .
٦ تاج العروس (٢١٩/٩) ، (ركن) .
٧ اللسان (٢٦٣/١٣) ، تاج العروس (٢٦٧/٩) ، (طبن) .
٨ اللسان (٤١٦/٤) ، تاج العروس (٣٠٥/٣) ، (شعر) .

بها . وفي حديث عائشة : كنت ألعب مع الجواري بالبنات[1] . و (الدحندح) لعبة للصبية يجتمعون لها فيقولونها ، فمن أخطأها قام على رجل وحجل سبع مرات[2]. ومن ألعاب الغلمان (الحكة) ، وهي لعبة لهم يأخذون عظماً فيحكّونه حتى يبيض ثم يرمونه بعيداً فمن أخذه فهو الغالب[3] . واللعبة التمثال يلعب به الصبيان . و (الملعبة) ثوب بلا كم يلعب فيه الصبي[4] .

وعرفت ألعاب الشدة والقوة عند الجاهليين . ومن هذه لعبة (الربع) ، وهي رفع الحجر باليد وشيله امتحاناً للقوة . وفي الحديث انه مرّ بقوم يربعون حجراً، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا الاشداء[5] .

القمار :

و (القمار) من الألعاب المتفشية كثيراً بين الجاهليين ، ولم يكن الباعث عليه التسلية واللهو في الغالب ، وإنما كان طمعاً في الربح . ويسمى (الميسر) في العربية التي نزل بها القرآن الكريم . وقد أشير اليه في الشعر الجاهلي . وقد حرمه الاسلام ، ونزل الأمر بالنهي عنه في القرآن الكريم . ويذكر أهل الأخبار أن أول من حرّم القمار في الجاهلية (الأقرع بن حابس التميمي) ، ثم جاء الاسلام بتقريره[6] .

وذكر أن كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. وعرف الميسر : انه القمار بالقدّاح في كل شيء[7] . وقامر الرجل راهنه[8] . وذكر أن الياسرين : الذين يلون قسمة الجزور،والميسر الجزور نفسه، سُمّي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة ، وهذا الأصل في الياسر ، ثم يقال للضاربين بالقداح

---

١ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٢ تاج العروس (٢/١٣٥) ، (دح) .
٣ تاج العروس (٧/١٢٢) ، (حك) .
٤ تاج العروس (١/٤٧١) ، (لعب) .
٥ تاج العروس (٥/٣٣٨) ، (ربع) .
٦ صبح الاعشى (١/٤٣٥) .
٧ اللسان (٥/٢٩٨) .
٨ اللسان (٥/١١٥) .

والمتقامرين على الجزور : الأيسار[1] . وذكر أن اشتقاق (الميسر) إما من اليسر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كدٍ ولا تعب ، أو من اليسار لأنه سلب يساره[2] .

وقد ألّف بعض العلماء كتباً في الميسر،منها كتاب ألّفه (ابن قتيبة الدينوري) وكتاب ألّفه (الزبيدي) دعاه (نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح)[3] .

وآراء العلماء متباينة في الميسر وفي المراد منه ، وفي طريقته . ويظهر أن قسماً ممن كان يلعب الميسر لم يكن يلعبه ابتغاء الكسب ، وانما كان يلعبه للتسلية والترفيه عن الآخرين ، وذلك باعطائه ما يكسبه للمحتاجين وللفقراء ، ولذلك افتخروا بعملهم هذا وعدّوه مفخرة من مفاخر العرب ، لأنهم كانوا يفعلونه في أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء[4] . فيعطون اللحم للمحتاج اليه ، إذ عيب من كان يأخذه لنفسه ، وعدّوه عاراً[5] . وقد افتخروا به في شعرهم[6]، ومدحوا من يأخذ القداح وعابت من لا ييسر ودعته (البرم)[7] ، وذلك لبخله وظنه بماله من أن يذهب إلى غيره ، مع أن الناس في حاجة شديدة اليه .

وإلى لعب الموسرين الأيسار في الشتاء لمساعدة ذوي الحاجة ، أشار طرفة في شعره إذ قال :

وهم أيسار لقمان إذا أغلت الشتوة أبداء الجزور[8]

وأما القسم الآخر ممن كان ييسر ، فكان يبغي الكسب والمال ، لذلك كان يقامر بكل ما يملك في سبيل الحصول على المال للمياسرة . روي عن (ابن عباس) أنه (كان الرجل في الجاهلية يخاطر على أهله وماله) في سبيل

---

١ اللسان (٥/٢٩٨) وما بعدها .
٢ بلوغ الارب (٣/٥٣) .
٣ بلوغ الارب (٣/٦٤) ، تاج العروس (١/جى) (الكويت) .
٤ بلوغ الارب (٣/٥٤ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٣/٦٠) .
٦ بلوغ الارب (٣/٥٧) .
٧ بلوغ الارب (٣/٦٥) .
٨ اللسان (٥/٢٩٨) ، بلوغ الارب (٣/٦٠) .

المياسرة[1] . وكان يلجأ إلى الغش والخداع والسرقة واضاعة العيال ، ولأضراره هذه حرمه الاسلام[2] .

وقد ييسرون على الأسرى ، فقد وقع (سحيم بن وثيل اليربوعي) في سباء، فضرب عليه بالسهام ، فقال في ذلك :

أقول لهم بالشعب إذ ييسروني ألم تعلموا أني ابن فارس زهدم[3]

وصفة الميسر : أن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجزور بينهم ، فيفصلونها على عشرة أجزاء يُؤتى بالخُرضَة وهو رجل يتأله عندهم لم يأكل لحماً عندهم قط بثمن ، ويؤتى بالقداح وهو أحد عشر قِدْحاً ، سبعة منها لها حظ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت ، بقدر ما لها من الحظ إن فازت ، وأربعة ينفل بها القداح ، لا حظ لها إن فازت ولا غرم عليها ان خابت .

فأما التي لها الحظ : فأولها الفذ في صدره حز واحد ، فإن خرج أخذ نصيباً ، وإن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب ، ثم التوأم ، له نصيبان ان فاز ، وعليه ثمن نصيبين إن خاب ، ثم الضريب ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحلس وله أربعة ، ثم النافِس وله خمسة ، ثم المسبل ، وله ستة ، ثم المُعَلّى وله سبعة . والمسبل يسمى : المصفح ، والضريب يقال له : الرقيب .

وأما الأربعة التي ينفصل بها القداح ، فهي : السفيح ، والمنيح ، والمضعف، والوغد .

وقيل : إن للمنيح موضعين : أحدهما لا حظ له ، والثاني له حظ ؛ فكأنه الذي يمنح الحظ ، واستدلوا على ذلك بقول عمرو بن قبيصة :

بأيديهم مقرومة ومغالق يعود بأرزاق العيال منيحها[4]

فيؤتى بالقداح كلها وقد عرف كل ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا

---

١ بلوغ الارب (٣/٥٣ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/٦٥) ، اللسان (٥/٣٠٠) ، اليعقوبي (١/٣٠٠) (طبعة هوتسما) .
٣ اللسان (٥/٢٩٨) ، بلوغ الارب (٣/٥٤) .
٤ نهاية الارب (٣/١١٧ وما بعدها) .

سبعة ، لا يكونون أكثر من ذلك ، فإن نقصوا رجلاً أو رجلين ، فأحب الباقون ان يأخذوا ما فضل من القداح ، فيأخذ الرجل القدح والقدحين فيأخذ فوزهما إن فازا ، ويغرم عنهما إن خابا ويدعى ذلك ، التميم . قال النابغة :

اني أتمـــم أيساري وأمنحهم من الأيادي واكسوا الجفنة الأدما

فيعمدون إلى القداح ، فتشدّ مجموعة في قطعة جلد ، ثم يعمـــد الى الحرضة فيلف على يده اليمنى ثوباً لئلا يجد مس قدحٍ له في صاحبه هوى ، فيحابيه في اخراجه ، ثم يؤتى بثوب أبيض يدعى المجول ، فيبسط بين يدي الحرضة ، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى الرقيب ، ويدفع ربابة[1] القـــداح الى الحرضة وهو محوّل الوجه عنها ، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب ، فينكسر القـــداح بشماله ، فإذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب فإن كان مما لا حظ له ردّ إلى الربابة ، فإن خرج بعده المسبل ، أخذ الثلاثة الباقيـــة ، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى ، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب ، فربما نحروا عدة جزور ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً ، وانما الغـــرم على الذين خابوا ولا يحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً، فإن فاز قدح للرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطار فعلوا ذلك به[2] .

و (الحرضة) ، الذي يضرب للأيسار بالقداح لا يكون إلا ساقطاً ، يدعونه بذلك لرذالته ، وعرف انه من المقامرين ، ومن شأنه المعروف له انه الرجل الذي لا يشتري اللحم ولا يأكله بثمن إلا أن يجده عند غيره أو يهدى له الأيسار[3] . ويظهر من هذا الوصف ومن أوصاف أهل الأخبار له ، ومن قول للطرماح في وصف حمار ، فتعرض بهذه المناسبة لذكر الحرضة :

ويظلُّ المليء يوفى على القرْ ن عذوباً كالحرضة المستفاض[4]

---

١ الربابة : ما يجمع فيها القداح .
٢ نهاية الارب (٣/١١٨ وما بعدها) .
٣ اللسان (٧/١٣٦) ، بلوغ الارب (٣/٦١) ، صبح الاعشى (١/٤٠٠ ومـــا بعدها) .
٤ اللسان (٧/١٣٥) .

ان الناس كانوا ينظرون إلى (الحرضة) نظرة استصغار وازدراء ويعرف أيضاً بـ (الضريب) .

ويسمى (الرقيب) (رابىء الضرباء) يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبي لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه ، ثم يجلس الأيسار حوله دائرين به . ثم يفيض الضريب بالقداح ، فإذا نشز منها قدح استسله الحرضة من غير أن ينظر اليه ، ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه الى صاحبه ، فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فإن شاء بعد ذلك أمسك ، وإن شاء أعاد السهم على (خطار) آخر ، وهو السبق يراهن عليه ، وهو ما يوضع بين أهل السباق . واعادة السهم تسمى التثنية[1].

وقد وصفت (القداح) بأنها عيدان من نبع ، قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول . وهي عشرة من رواية أخرى غير الرواية التقدمة . هي : الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد . وللأول سهم إن فاز ، وفوزه خروجه وعليه عزم سهم إن خاب ، وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه الى المعلى ، وهو السابع ، وله سبعة وعليه سبعة يفرض في كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة أخر أغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة . وهي : المنيح والسفيح والوغد،وتسمى القداح مغالق ، لأنها تغلق الرهن إذا ضربوا بها[2].

وإذا حضرت القداح وحضر الأيسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وطاقته ورياسته ، فمنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له ، فإن خاب غرم سهماً ، وإن فاز أخذ سهماً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالي بالغرم إن خاب وينال النصيب الأوفر ان فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام ، فيأخذ ما فضل من القداح ، ويقول للأيسار قد تممتكم[3] .

ويقع الغرم أي ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة : أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . ولجملة هذه القداح ثمانية عشر سهماً ، فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً. ويلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان

---

١ بلوغ الارب (٣/٦١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الارب (٣/٥٨ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٥٩) .

نصيبه من اللحم لو فاز قدحه ، فإن لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى ، أخذ صاحبه السبعة الأجزاء الباقية ، وهي تتمة الجزور ، وكانت الغرامة على من لم يخـرج قدحه ، وهم أصحاب القداح الخمسة التي خابت . وقد ينحرون جزوراً آخر لأن في القداح التي خابت نصيباً يزيد على نصيب ما بقي من اللحم . وإن فضل من أجزاء اللحم شيء وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشيرة، وهم أهل الضعف وسوء الحال[1] .

الأسفار :

ومن أيام الفرح والسرور عندهم يوم العودة من السفر ومن حقهم أن يفرحوا به . فقد كان السفر شاقاً خطراً في تلك الأيام ، ولا سيما إذا طال . فقد يتعرض المسافر فيه للهلاك والموت جوعاً أو عطشاً ، عدا ما يتعرض له من السلب والنهب. لذلك كانوا يحاولون جهدهم أن يسافروا جماعة وقوافل يتعاونون ويشد بعضهم أزر بعض . وكانوا إذا عادوا فرح أهلهم بعودتهم سالمين ، وتلقوهم بالبشر والتهنئة، وذبحوا الذبائح ووزعوا لحومها بين الأصدقاء والفقراء ، وأولموا الولائم للمهنئين والجيران . وكان أول مـا يفعله المسافر الى مكة عند عودته الى مدينته الذهاب الى (البيت) للطواف به ولشكر رب البيت على حمايته له واغداقه نعمته عليـه بالعودة سالماً .

وقد عثر السياح والمنقبون عن الآثار في جزيرة العرب على كتابات جاهلية توسل فيها أصحابها إلى آلهتهم لترعاهم في سفرهم ، وتحفظهم من لصوص الطرق ومن كل شر وسوء . وقد تعهدوا فيها بتقديم نذور لمعابدها بعد عودتهم سالمين غانمين. كما عثر على كتابات فيهـا حمد وشكر لتلك الآلهة لأنها أجابت دعوة أصحـاب الكتابات ، فحمتهم ورحمتهم في سفرهم ويسرت لهم العودة سالمين .

وكانوا إذا أرادوا السفر عمدوا الى فعل الجاهلية في زجر الطـير والاستقسام بالأزلام لاختيار الطالع ، فإذا خرج سهم (الأمر) فسروه بالأمر بالسفر ، وإذا

---

١ بلوغ الارب (٣/٦٢ وما بعدها) .

خرج (النهي) (الناهي) ، انتهوا عنه[1] .

وكانوا إذا خرجوا الى الأسفار أوقدوا ناراً بينهم وبين المنزل الذي يريدونه، ولم يوقدوا بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع اليه[2] .

وللمهنئين بسلامة العودة ، تعابير خاصة يقولونها للمسافرين حين السفر وحين العودة . وفي جملة ما كانوا يقولونه للإياب من السفر : (سفر رجيع). وسفر رجيع : مرجوع فيه مراراً[3] .

ومن مناسبات الفرح والسرور ، الإبلال من مرض والشفاء منه . فالشفاء من المرض عودة الى الحياة وولادة من جديد ، وعمر يضاف الى عمر المريض . لذلك كان المرضى يتوسلون الى آلهتهم أن تمنّ عليهم بالصحة والشفاء والعافية مما ابتلوا به ، ويعدونها بتقديم نذر إن أعادت اليهم صحتهم وعافيتهم . وقد حصل المنقبون على ألواح كثيرة كتب فيها شكر وحمد وثناء على الآلهة لأنها أجابت دعوة صاحب الكتابة ، فعافته من مرضه ، ومنت عليه بالصحة والعافية ، وأبرأته مما أصيب به من أمراض أو جروح في معارك ، فهو يوفي بوعده لها ويقدم لها نذره ويحمدها على نعمها عليه . وقد يولمون وليمة يقولون لها (البلّة) ، و(البلّة) العافية من المرض[4] .

ويعود أهل الجاهلية مرضاهم ، للإعراب لهم عن تمنياتهم لهم بالشفاء العاجل والابلال من المرض ، كما يعودونهم بعد الشفاء لتهنئتهم على عودة الصحة اليهم، وشفائهم مما ابتلوا به من مرض . ويقع (العود) من الرجال والنساء[5] . ويقال لمن حسنت حاله بعد الهزال ، ولمن شفي من مرض (بلّ الرجل)، من مرضه و (بلّ من مرضه) ، و (أبلّ)[6] .

---

١ ابن قيم الجوزية ، كتاب الهدى النبوي (٢/٣١) ، (في هديه صلى الله عليه وسلم في اذكار السفر وآدابه) .

٢ بلوغ الارب (٢/٣٢٤) .

٣ تاج العروس (٥/٣٥١) ، (رجع) .

٤ تاج العروس (٧/٢٣٣) ، (بلل) .

٥ تاج العروس (٢/٤٣٦) ، (عود) .

٦ تاج العروس (٧/٢٣٣) ، (بلل) .

مواسم الربيع :

وللربيع مكانة خاصة في نفوس العرب ، حتى صار في منزلة العيد عندهم . ففيه يطيب الجو ، ويرق الهواء ، وتكسى الأرض بأكسية خضراء ويبسط منمقة مزركشة ، تسحر مناظرها الألباب ، تسير عليها الإبل بفخر وإعجاب ، تقضم ما تجده فوقها من طعام . فتشبع وتسمن بعد فقـر وجوع وضنك . وفيه يكثر مال العرب ، ومال العرب إبلهـم ، وتكثر مواشي الحضر ، من غنم وبقـر . وتكون سنة الربيع للعربي سنة يمن وبركة . وسنة انحباس الغيث وانقطاع المطر ، سنة بؤس وشقاء .

ولا يفرح العربي بشيء فرحه بالغيث وبظهور الربيع ، أي موسم اخضرار الأرض واكتسائهـا ببساط سندسي يبهر العين ويؤثر في النفس فيجعلها فرحـة مستبشرة ، فيخرج السادات إلى المرابـع ، يتلذذون هناك بمنظر الربيع وبرؤيـة أموالهم وهي فرحة مستبشرة ترعى فيه ، فيزيد بذلك مالهـم ويكثر لبن نوقهم وتنشط إبلهم في انجاب الولد . ويتوجه سادات القبائل إلى المرابع الجيدة ، التي يجود فيها الربيع ، وليس في بلاد العرب مربع كالدهناء[1] . ويترك الملوك قصورهم على ما فيها من وسائل الراحة ، للذهاب إلى البادية ، للاستمتاع بما خلقته الطبيعة هناك ، وبما أوجدته من صنعة متقنة وفن عجيب لا يضاهى . يبقون هناك أياماً وأسابيع ، يجددون فيها عهدهم بالبوادي وبما فيها من هواء صحيح سليم ، يعطي الجسم نشاطاً ، ويبعث فيه (اكسير) الحياة .

البغاء :

البغاء الفجور . و (البغيُّ) الأمَةَ فاجرة كانت أو غير فاجرة ، والجمع البغايا . والزنا هو الفجور ، وهو عيب كبير عند العرب ، فلا تقربه الحـرة . أما الرجال ، فلا يرونه عيباً ، بل قد يتبجـح بعضهم به ، لأنه من أمارات الرجولة . وقد كانوا يذهبون اليهن ويتصلون بهن في مقابل أجر ، وكن من الإماء ،

---

١ تاج العروس (٩/٢٠٥) ، (دهن) .

لأن المرء في الحياة لبطنه وفرجه . ومنه المثل : « المرء يسعى لِغارَيْه » أي يكسب لبطنه وفرجه[1] .

وعرفت (البغي) بـ (القحبة) . قيل لها قحبة لأنها كانت في الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها ، وهو سعالها[2] . فقد كان من عادة (قحبة) الجاهلية أن تسعل أو تتنحنح ، تراود بذلك عن نفسها ، وتشعر الرجل انها حاضرة للفجور إن أراد ذلك ، فيتفق معها .

و (المسافحة) ، المزاناة لأن الماء يصب ضائعاً . و (السفاح) أن تقيم امرأة مع رجل على الفجور من غير تزويج صحيح ، وفي الحديث : « أوله سفاح وآخره نكاح » . وهي المرأة تسافح رجلاً مدة فيكون بينهما اجتماع على فجور ، ثم يتزوجها بعد ذلك . وكان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل المرأة قال: أنكحيني ، فإذا أراد الزنا ، قال : سافحيني[3] .

ويقال للزنا : الفاحشة ، والفاحشة الزانية وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي وكل ما نهي عنه،وكل خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال[4]. فاللفظة عامة تتناول الفحش الذي هو الزنا كما تتناول غيره من الأعمال والخصال القبيحة . ويقال للبغي وللأمة (تُزنى) . ويقال لابنها (ابن تزنى) و (ابن درزة)[5] .

ولما نزلت الآية : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم »[6] ، وفرغ رسول الله من بيعة الرجال بمكة واجتمع اليه نساء من قريش فيهن : (هند بنت عتبة) وأخذن يبايعن الرسول ، فلما وصل الى قوله تعالى : (ولا يزنين) ، فقالت : يا رسول الله وهل تزني الحرة[7] ؟!.

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٧) ، (سعى) .
٢ تاج العروس (١/٤٢١) ، (قحب) .
٣ تاج العروس (٢/١٦٤) ، (سفح) ، تفسير الطبري (٥/١٤) .
٤ تاج العروس (٤/٣٣١) ، (فحش) .
٥ تاج العروس (٩/١٥٣) ، (ترن) .
٦ سورة الممتحنة ، الاية ١٢ .
٧ تاريخ الطبري (٣/٦٢) ، (فتح مكة) ، تفسير الطبري (٢٨/٥٠) .

وفي القرآن الكريم آيات ذكرت الزنا في الجاهلية ، من ذلك آية سورة النور : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة،والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ ، وحرّم ذلك على المؤمنين »[1] . قال المفسرون : قدم المهاجرون إلى المدينة وفيهم فقراء ليست لهم أموال ، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن ، وهنّ يومئذ أخصب أهل المدينة ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين،فقالوا : لو إنا تزوجنا منهن فعشنا معهن إلى أن يغنينا الله تعالى عنهن . فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم ، في ذلك ، فنزلت هذه الآية وحرم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمنين عن ذلك . وقال عكرمة : نزلت الآية في نساء بغايا متعالمات بمكة والمدينة ، وكن كثيرات ، ومنهن تسع صواحب رايات ، لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها : أم مهدون (أم مهزول) جارية السائب بن أبي السائب المخزومي ، و (أم غليظ) (أم غليط) جارية صفوان بن أمية ، و (حبة القبطية) (حنة القبطية) جارية العاص بن وائل ، و (مرية) جارية مالك بن عميلة (عمثلة) بن السباق بن عبد الدار ، و (حلالة) (جلالة) جارية سهيل بن عمرو ، و (أم سويد) جارية عمرو بن عثمان المخزومي ، و (شريفة) (سريفة) جارية زمعة بن الأسود ، و (قرينة) (قرسة) جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة بن جبل بن مالك بن عامر بن لؤي ، و (فرتنا) (قريبا) جارية هلال بن أنس بن جابر بن نمر بن غالب بن فهر . وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية (المواخير) لا يدخل عليهن ولا يأتيهن إلا زانٍ من أهل القبلة أو مشرك من أهل الأوثان،فأراد ناس من المسلمين نكاحهن ليتخذوهن مأكلة ، فأنزل الله تعالى ، هذه الآية ، ونهى المؤمنين عن ذلك ، وحرمه عليهم)[2] .

وورد أن امرأة يقال لها أم مهدون (أم مهزول) كانت تسافح وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة . وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها، فذكر ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية : « الزانية لا ينكحها إلاّ زان »[3] . وكان لمرثد صديقة في الجاهلية ، يقال لها عناق ، وكان مرثد

---

١ سورة النور ، الاية ٣ .
٢ أسباب النزول (٢٣٦ وما بعدها) ، تفسير الطبري (١٨/٥٥ وما بعدها) .
٣ أسباب النزول (٢٣٦) .

رجلاً شديداً ، وكان يقال له : دلدل ، وكان يأتي مكة فيحمل ضعفة المسلمين الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلقي صديقته ، فدعته إلى نفسها، فقال: إن الله قد حرم الزنا ، فقالت : اني تبرز . فخشي أن تشيع عليه ، فرجع الى المدينة فأتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله كانت لي صديقة في الجاهلية ، فهل ترى لي نكاحها ؟ قال : فأنزل الله : « الزانية لا ينكحها إلا زان ...»[1] . وذكر أنهن كنّ بغايا متعالمات كنّ في الجاهلية ، بغي آل فلان وبغي آل فلان ، فأنزل الله : « الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلاّ زانٍ أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » فحكم الله بذلك من أمر الجاهلية على الإسلام[2] . وورد : كان الرجل ينكح الزانية في الجاهلية التي قد علم ذلك منهـا ، يتخذها مأكلة ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الجهة ، فنهوا عن ذلك»[3] .

وفي القرآن الكريم : « ولا تُكرهوا فتَياتكم على البغاء ، إن أرَدْنَ تحصناً، لتبتغـوا عَرَضَ الحياة الدنيا . ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم »[4] . قال المفسرون : نزلت في معاذة ومسيكة جاريتي عبـدالله بن أُبيّ المنافق ، كان يكرهها على الزنا لضريبة يأخذها منها . وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤاجرون إماءهم . فلما جاء الإسلام ، قالت معاذة لمسيكة إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين ، فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في ست جوارٍ لعبدالله بن أُبيّ كان يكرههن على الزنا ويأخذ أجورهن ، وهن : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة ، فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لهما : إرجعا فازنيا . فقالتا : والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا . فأتيا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وشكتا اليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية»[5] . وذكر أن رجلاً من قريش

---

١ تفسير الطبري (١٨/٥٦) .
٢ تفسير الطبري (١٨/٥٧) ، ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد (٤/٧) .
٣ تفسير الطبري (١٨/٥٨) .
سورة النور ، الاية ٣٣ .
٤ أسباب النزول (٢٤٥ وما بعدها) ، (مصر ١٣١ هـ) ، تفسير الطبري (١٨/١٠٣ وما بعدها) .

أو بين البنت الحرة والرجل العزب أو الذي لم يتزوج ، أي الزنا مع غير الإماء. أما الزنا مع الإمـــاء ، فلم يكن الجاهليون يعيبون الإنسان عليه كما بينت ذلك . ويظهر من بعض الأخبار الواردة عن الزنا أنّ من الجاهليين من كان يأخذ الفدية عنه . فقد روي أن رجلاً من الأعراب قام فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا ما قضيت بيننا بكتاب الله وائذن لي . فقال رسول الله : قل : قال : إن ابني كان عَسيفاً على هذا (وأشار الى أعرابي كان جالساً الى جانبه) فزنى بامرأته فافتديت منه بمئة شاة وخادم ثم سألت رجالاً من أهل العلم ، فأخبروني أنّ على ابني جلد مئة وتغريب عام ، وعلى امرأته الرجم لإحصانها . فقال النبيّ : والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله جلّ ذكره : المئة شاة والخادم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مئة وتغريب عام . وأغدُ يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها . فغدا عليها فاعترفت فرجمها[1] . وقد كان هذا الحادث بعد نزول الأمر بالرجم . فيظهر منه أن من جملة عقوبات الزنا عند الجاهليين كان أخذ فدية ، أو أخذ فدية وتغريب .

واختلاف وجهة نظر الجاهليين الى الزنا ، هو بسبب اختلاف عاداتهم وعرفهم وتعدد قبائلهم ، وعدم وجود دين واحد لهم يخضعون جميعاً لحكمه . فلما جـاء الاسلام وجعل الزنا من المحرمات ، تغير حكمهم عليه ، وصار شرعهم في ذلك هو شرع الإسلام .

و (المواخير) ، بيوت أهل الفسق ومجالس الخمّارين ، ومواضع الريبة . والماخور : بيت الريبة ومن يسلي ذلك البيت ويقود اليه[2] . واللفظة من الألفاظ المعربة . يرى بعض علماء اللغة أنها معربة عن أصل فارسي (ميخور) (مي خور)، أي شارب الخمر،وذهب بعض آخر الى أنها من أصل عربي[3] . ولكن الصحيح أنها فـارسية معربة . وقد كانت المواخير في الجاهلية موجودة في القرى والمدن وعلى طرق التجـارة . حيث يأوي التجار وأصحاب الأسفار للراحة ، فيجدون أمامهم تلك المواخير . ذكر عن (ابن عبّاس) في تفسير قوله تعالى : « الزاني

---

١ ارشاد الساري (١٠/١٧) .

٢ اللسان (٥/١٦١)، تاج العروس (٣/٥٣٤) ، (مخر) .

٣ اللسان (٥/١٦١) ، تاج العروس (٣/٥٣٤) ، غرائب اللغة (٢٤٥) .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانيـــة لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »[1] أنه قـــال : « كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهنّ ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهـن ولا يأتيهن إلا زان »[2] .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلهن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن ويحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقـد حدثت مثـل هذه الحوادث في الاسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم[3] .

صواحب الرايات :

وهن البغايا كنّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن[4] . وذكـر أن تلك الرايات كانت رايات حمراً[5] . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الاسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط)[6] .

وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الاسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث عليّ كرم الله وجهه ، لما طلب اليه أهـــل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولهم تَغَدْمُرٌ وبَرْبَرة)[7] ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم .

وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطـــايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعقوبة نفسها[8] . وإذا ضاجع رجل

---

١ النور ، الاية ٤ .
٢ تفسير الطبري (٥٧/١٨) .
٣ النساء ، الاية ١٥ ، تفسير الطبري (١٩٧/٤) .
٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .
٥ تفسير المنار (٢٢/٥) .
٦ المحبر (٣٤٠) .
٧ تاج العروس (٣٨/٣) ، (بر) ، اللسان (٥٦/٤) ، (برد) .
٨ اللاويون ، الاصحاح ٢٠ الاية ١٠ ، تثنية ، الاصحاح ١١ ، الاية ٢٢ .

لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانيـــة لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين »[1] أنه قـــال : « كانت بيوت تسمى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهن ، وكانت بيوتاً معلومة للزنا لا يدخل عليهـن ولا يأتيهن إلا زان »[2] .

وكان من الرجال من يتهم أزواجه بالزنا ويرميهن بالفاحشة ، لأسباب عديدة، منها الرغبة في التخلص منهن أو انتقاماً من أهلهن أو عضلاً لهن ، فلا يتزوجن ويحبسن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، وقـد حدثت مثـــل هذه الحوادث في الاسلام ، فنزل الحكم فيها في القرآن الكريم[3] .

صواحب الرايات :

وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، وتفاوض معهن على أجورهن في مقابل دخوله بهن[4] . وذكـر أن تلك الرايات كانت رايات حمراً[5] . وروي انه (كان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها . فأذهب الاسلام ذلك ، وأسقطه فيما أسقط)[6] .

وقد وجد بعض الناس صعوبة في تقبل حكم الاسلام في تحريم الزنا والخمر . (وفي حديث علي كرم الله وجهه ، لما طلب اليه أهـــل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الزنا والخمر ، فامتنع ، قاموا ولهم تَغَدْمُرٌ وبَرْبَرة)[7] ، من شدة غضبهم ونفورهم من هذا التحريم .

وأما اليهود ، فقد ساروا على وفق ما جاء في التوراة في أمر الزنا . وهو من الخطـــايا المنهي عنها في الوصية السابعة من الوصايا العشر . ويقاص الرجل الذي يضاجع امرأة غيره بالموت ، وتعاقب المرأة بالعقوبة نفسها[8] . وإذا ضاجع رجل

---

١ النور ، الاية ٤ .
٢ تفسير الطبري (١٨/٥٧) .
٣ النساء ، الاية ١٥ ، تفسير الطبري (٤/١٩٧) .
٤ تفسير الطبري (١٨ ، ٥٧ وما بعدها ، ١٠٣ وما بعدها) .
٥ تفسير المنار (٥/٢٢) .
٦ المحبر (٣٤٠) .
٧ تاج العروس (٣/٣٨) ، (بر) ، اللسان (٤/٥٦) ، (برد) .
٨ اللاويون ، الاصحاح ٢٠ الاية ١٠ ، تثنية ، الاصحاح ١١ ، الاية ٢٢ .

ابنة مخطوبة ولم تصرخ الابنة رجم الاثنان ، وإذا صرخت رجم هو فقط[1] . وإذا ضاجع رجل ابنة حرة غير مخطوبة ، فوُجدا ، لزم عليه اعطـــاء والدها خمسين شاقلاً من الفضة ، ويلتزم أن يأخذها له امرأة[2] . وإذا كانت الابنة غير حرة ، كان يقدم الرجل تقدمة حظيته[3] . وقد نُصَّ في سفر (العدد) على طريقة إظهار زنا المرأة المتهمة ومعاقبتها[4] .

ويظهر من كتب السير والحديث أن يهود المدينة في أيام الرسول ، كانوا قد تساهلوا في تطبيق أحكام التوراة بشأن الزنا،وابتدعوا طرقاً أخرى غير طرق العرف والعادة . فقد رُوي انه أتي رسول الله بيهودي ويهودية ، وقد أحدثا جميعاً ، أي زنيا . فقال رسول الله لليهود : ما تجدون في كتابكم ؟ قالوا : إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية . أي الإركاب معكوساً ، وقيل أن يحمـل الزانيان على حمار مخالفاً بين وجهيهما . قال عبدالله بن سلام: ادعهم يا رسول الله بالتوراة، فأتى بها ، وقرأ موضع الرجم ، فرجما[5] .

وعرفت (القيادة) عند الجاهليين . قالت « عائشة رضي الله عنها : ليست الواصلة بالتي تعنون ، وما بأسٌ إذا كانت المرأة زعراء أن تصل شعرها، ولكن الواصلة أن تكون بغياً في شبيبتها ، فإذا أسنت وصلته بالقيادة »[6] . والقوادة هي التي تجلب البغايا للرجال ، وأما القواد ، فالذي يقوم بالقيادة . و (التـــديث) القيادة . و (الديوث) القوّاد على أهله والذي لا يغار على أهله . وقيل الديوث والديبوب الذي يدخل الرجال على حرمته بحيث يراهم ، كأنه لين نفسه على ذلك. وقيل هو الذى تؤتى أهله وهو يعلم[7] .

---

١ التثنية ، ٢٢ الاية ٢٣ وما بعدها .
٢ التثنية ، ٢٢ ، الاية ٢٨ وما بعدها .
٣ اللاويون ، ١٩ ، الاية ٢٠ وما بعدها .
٤ العدد ، الاصحاح ٥ ، الاية ١١ وما بعدها ، قاموس الكتاب المقدس (١/٥٢٠) .
٥ ارشاد الساري (١٠/١١ وما بعدها ، ٣٠) زاد المعاد ،لابن قيم الجوزية (٣/٢٠٧ وما بعدها) .
٦ عيون الاخبار ، للدينوري (٤/١٠٢) ، (باب القيادة) ، اللسان (١١/٧٢٧) ، (وصل) .
٧ اللسان (٢/١٥٠) ، (ديث) ، تاج العروس (١/٦٢٢) ، (ديث) ، (٢/٤٧٨) (قود).

وضرب المثل بـ (ظلمة) في القيادة . وكانت (صبيّة في الكتاب ، فكانت تضرب دويّ الصبيان وأقلامهم ، فلما شبت زنت ، فلما أسنّت قادت ، فلما قعدت اشترت تيساً تنزيه على العتز)[1] . وذكر أنها كانت فاجرة هذلية . فضرب بها المثل فقيل (أقود من ظلمة) و (أفجر من ظلمة)[2] .

المخادنة :

وهناك نوع آخر من العلاقات يكون بين الرجل والمرأة بغير عقد ولا نكاح يكون الرجل خدناً للمرأة أي صديقاً لها ، وتكون هي خدنة له ، أي صديقة له[3]، ولذلك عبر عن هؤلاء النسوة المتخادنات بـ (ذوات الأخدان) و (متخذات أخدان) . جاء ذكر هذه المخادنة في الآية الكريمة : « فانكحوهن بإذن أهلهن، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »[4] . أي أصدقاء على السفاح . وقد ذكر أن ذلك قيل كذلك ، لأن الزواني كُنّ في الجاهلية المعلنات بالزنا والمتخذات الأخدان اللواتي قد حبسن أنفسهن على الخليل والصديق للفجور بها سراً دون إعلان بذلك . وقد ذكر أن متخذات الأخدان ذوات الخليل الواحد . قالوا : كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي ، يقولون : أما ما ظهر منه فهو لؤم ، وأما ما خفي فلا بأس بذلك . فأنزل الله تبارك وتعالى : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[5] . فذات الخدن ، المرأة ذات الخليل الواحد المستسرة به . وقد يقيم معها وتقيم معه[6] وقد عد صداقة ومودة ، لذلك اختلفت وجهة نظر أهل الجاهلية اليه عن وجهة نظرهم الى الزنا ، فلم يعدّوه من الزنا الشائن .

المضامدة :

والمضامدة قريبة من المخادنة . والضّمْد أن تخالّ المرأة ذات الزوج رجلاً

---

١ عيون الاخبار ، للدينوري (٤/١٠٣) .
٢ الميداني ، الامثال (٢/٦٠) ، (بولاق) ، تاج العروس (٨/٣٨٦) ، (ظلم) .
٣ تاج العروس (٩/١٩٠) (خدن) .
٤ النساء ، الاية ٢٥ .
٥ تفسير الطبري (٥/١٣ وما بعدها) .
٦ المصدر نفسه .

غير زوجها أو رجلين . والضماد أن تصادق المرأة اثنين أو ثلاثة في القحط لتأكل عند هذا وهذا لتشبع . و (الضمد) الخل[1] .

الشذوذ الجنسي :

والشذوذ الجنسي معروف عند الجاهليين أيضاً كما هو عند جميع الأمم منذ القدم ، وليس من المعقول استثناء الجاهليين من ذلك ، بدليل ورود النهي عنه والتحذير منه في القرآن الكريم وفي الحديث . ومن الشذوذ الجنسي ، الشذوذ المعروف ، وهو ذهاب الرجل مع الرجل ومزاولته عمل الجنس معه ، أو اتصال المرأة بالمرأة اتصالاً جنسياً ، أو اتيان الرجل المرأة من دبر ، كما كان الحال عند أهل مكة فقد ذكر أن منهم من كان يأتي النساء من أدبارهن ، وقد منع ذلك في الاسلام[2] . وقد عرف إتيان المرأة في دبرها بـ (التحميض) . ويقال للتفخيذ في الجماع (التحميض) أيضاً[3] . وذكروا في تفسير الآية : (نساؤكم حرث لكم)[4] : (انما كان هذا الحي من الأنصار ، وهم أهل وثن ، مع هذا الحي من يهود ، وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أستر ما تكون المرأة ، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ، ويتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات . فلما قدم المهاجرون المدينة ، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار ، فذهب يصنع بها ذلك ، فأنكرته عليه ، وقالت: انما كنا نؤتى على حرف ! فاصنع ذلك ، وإلا فاجتنبني ، حتى شرى أمرهما فبلغ ذلك النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : فأتوا حرثكم أنى شئتم ، أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد[5] . وذكر أن

---

١ اللسان (٢٦٦/٢) ، (ضمد) ، تاج العروس (٤٠٦/٢) ، (ضمد) .
٢ تفسير الطبري (٢٣٠/٢ وما بعدها) ، القرطبي الجامع لاحكام القرآن (٩١/٣) ، في تفسير الاية ، (نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم) ، الاية ٢٢٣ من سورة البقرة .
٣ تاج العروس (٢٣/٥) ، (حمض) .
٤ سورة البقرة ، الاية ٢٢٣ .
٥ تفسير الطبري (٢٣٤/٢) ، القرطبي ، الجامع (٩٢/٣ وما بعدها) ، تاج العروس (٦٦/١٠) .

أهل مكة كانوا يجبون النساء ، وكانت الأنصار لا تجبي وتنكر فعل ذلك ، وإنما يؤتين على جنوبهن . فوقع خلاف بين أهل مكة ممن تزوج من أهل المدينة وبين من تزوجوا في كيفية إتيانهن ، فنزلت الآية في شرح ذلك ، وانه يكون على أي شكل كان ، ما دام في موضع الحرث . والإجباء : أن تكون المرأة منكبة على وجهها كهيئة السجود ، فيأتيها الرجل على هذه الهيئة . وذكر ان يهود يثرب ، كانت تقول : إذا نكح الرجل امرأته مجبية جاء الولد أحول[1] .

وتستعمل لفظة (اللواطة) للتعبير عن إتيان الذكران في أدبارهم[2] وأرى أن هذا المعنى إنما وقع في الإسلام . أخذ مما جاء في القرآن الكريم عن عمل قوم لوط : (إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر)[3] ، (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم تجهلون)[4] . و (لوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون)[5] ، فنسب فعل إتيان الرجال بعضهم بعضاً إلى قوم (لوط) ، واشتق الفعل من اسمه . ونرى ان الآيات قد استعملت : (لتأتون الرجال) ، للتعبير عن هذا الفعل . واستعمل المفسرون هذا التعبير وتعبير (المجامعة) للتعبير عنه . وقد استعمل الجاهليون (لاط) في معانٍ أخرى لا صلة لها بالمعنى المذكور . وفي ذلك دلالة واضحة على أن استعمال (اللواط) إنما وقع في الإسلام .

والمأبون الذي تفعل به الفاحشة ، وهي الأبنة[6] . ومن المجاز برقع لحيته ، أي صار مأبوناً ، تزيا بزي من لبس البرقع ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر قيساً قيس عيلان برقعت لحاها وباعت نبلها بالمغازل[7]

---

١ تاج العروس (١٠/٦٦) ، (جبى) .
٢ تفسير الطبري (٢٠/١) .
٣ العنكبوت ، الاية ٢٨ وما بعدها .
٤ النمل ، الاية ٥٤ .
٥ الاعراف الاية ٨٠ وما بعدها ، تفسير الطبري (٨/١٦٤ وما بعدها) .
٦ تاج العروس (٩/١١٦) ، (ابن) .
٧ تاج العروس (٥/٢٧٤) ، (برقع) .

وذكر (ابن قيم الجوزية) أن هذا الفعل لم يكن معروفاً بين العرب ولم يرفع إلى الرسول في أيامه حادث به[1] .

وتعبير (السحاق) و (المساحقـــة) و (امرأة سحاقة) من التعابير التي انتشرت في الإسلام وقال الأزهري : ومساحقة النساء لفظة مولـدة[2] . ومن علماء اللغة من يرجع عهدها الى الجاهلية ، ويجعلها من الألفاظ العربية الأصيلة . واللفظة عربية ولا شك ، ولكن استعمالها في المعنى المذكور مجازي ، وقول الأزهري إنها مولدة غير صحيح .

وكان منهم من يضرب جاريته على ظهرها ثم يجامعها[3] . كأنهم كانوا لا يشعرون بشهوة الجنس على ما يظهر إلاّ بعد ضرب الجارية ، ويعبرون عـن ذلك بقولهم (صلق جاريته)، ويعرف هذا بين الغربيين في العصر الحاضر بالسادية Sadism نسبة الى (الكونت دي ساد) . كنايـــة عن الابتهاج بالقسوة . وعن انحـراف جنسي يتلذذ فيه المرء بإنزال أصناف العذاب بمحبوبه .

ومن الشذوذ أيضاً إتيان الحيوان . فقد ذكر أن (بني كليب) كانوا يرمون بإتيان الضأن ، وكذلك بنو الأعرج وسُلَيم . وأشجع تُرمى بإتيان المعز . ونجـد ذلك واضحاً مذكوراً في شعر الشعراء كالنجاشي والفرزدق[4] . ورميت (بنو دارم) بإتيان الأتن[5] . وتعرض (الجاحظ) في أثناء حديثه عن زواج الانس بالجن لهذا الموضوع فقال : ونحن نجد الأعرابي والشاب الشبق ، ينيكان الناقة والبقرة والعنز والنعجة ، وأجنـــاساً كثيرة ، فيفرغون نطفهم في أفواه أرحامها ، ولم نرَ ولا سمعنا على طول الدهر ، وكثرة هذا العمل الذي يكون من السفهاء ، القح منهـا

---

١ زاد المعاد (٣/٢٠٩) .
٢ تاج العروس (٦/٣٧٨) ، (سحق) .
٣ تاج العروس (٦/٤١١) ، (صلق) .
٤ السـت كليبا وأمك نعجة لكم في سمان الضأن عار ومفخر
وقال النجاشي :
ولو شتمتني من قريش قبيلة سوى ناكة المعزى سليم وأشجع
فخر السودان على البيضان ، من رسائل الجاحظ (١/١٨٩) .
٥ اذا احببت ان تغلى أتانـا فـــدل الدارمـــي عـلى شراها
يقبل ظهرها ويكاد لـولا قحول الظهر يدنو مـن قفاهـا
وود الدارمي لو أن فـاه اذا نـــال الحمـــارة نـال فاها
فخر السودان ، من رسائل الجاحظ (١/١٨٩) .

شيء من هذه الأجناس، والأجناس على حالهم من لحم ودم، ومن النطف خلقوا[1].

ورميت (بنو فزارة) بإتيان الإبل . رماها بذلك (بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن) في ملاحاة كانت بين الحيين . والعادة أن القبائل إذا تخاصمت رمت بعضها بعضاً بالتهم ، وذلك في الجاهلية وفي الإسلام . فلما رمى (بنو هلال) (بني فزارة) بأكل أير الحمار ، وبإتيان الإبل ، قالت بنو فزارة : أليس منكم يا بني هلال من قرا في حوضه فسقى إبله ، فلما رويت سلح فيه ومدره بخلاً أن يشرب من فضله[2] .

الأتراح والأحزان :

وإذ كنت قد تحدثت عن الأفراح في حياة الانسان ، وما كان يفعله أهل الجاهلية فيها ، فلا بد لي من التحدث هنا عن الأتراح والأحزان عندهم ، وما كانوا يفعلونه عند نزول مصيبة بهم أو وقوع حادث محزن مفجع لهم ، فأقول :

يلعب الحزن دوراً كبيراً في حياة الشرقيين ، بل نستطيع أن نقول إن الحزن أظهر في حياتهم من الفرح ،وأن المبالغة في إظهاره عندهم هي من المظاهر البارزة في مجتمعاتهم . وطالما يلجأ الحزين إلى المبالغة في حزنه ، ليظهر نفسه وكأنه كان أكثر الناس تحملاً للمصائب والأهوال والنكبات ، وما قصة (أيوب) الواردة في التوراة إلا نوعاً من هذا القصص : قصص الحزن وتحمل الصبر من شدة البلاء.

---

١ كتاب البغال ، من رسائل الجاحظ (٢/٣٧١) .

٢ قال الكميت بن ثعلبة :

نشدتك يا فزار وأنت شيخ ... اذا خيرت تخطيء في الخيار
أصيحانية أدمت بسمن ... أحب اليك أم أبر الحمار ؟
بل أير الحمار وخصيتاه ... أحب الى فزارة من فزار

وقال سالم بن دارة :

لا تأمن فزاريا خلوت به ... على قلوصك واكتبها بأسيار
لا تأمننه ولا تأمن بوائقه ... بعد الذي أمتك أير العير في النار

فقال الشاعر :

لقد جللت خزيا هلال بن عامر ... بني عامر طرا بسلحة مادر
فأف لكم لا تذكروا الفخر بعدها ... بني عامر أنتم شرار المعاشر

تاج العروس (٣/٥٣٦) ، (مدر) .

وفقدان المال بعد ثراء وغنى وجاه والعلل والأسقام التي تنزل بالانسان ، والكوارث والموت وأمثال ذلك ، هي مما يثير الحزن والأشجان في النفس، فتجعل الانسان يحزن على ما أصابه ويظهر جزعه أو تحمّله للآلام أمام الناس ، وذلك بمختلف أساليب التعبير عن الحزن الذي نزل بالحزين .

والحزن : الهمّ . وقيل : خلاف السرور . وقد فرّق بعضهم بين الهمّ والحزن . وقال بعض علماء اللغة : الحزن : الغمّ الحاصل لوقوع مكروه أو فوات محبوب في الماضي ويضاده الفرح . وقد سمّى رسول الله العام الذي ماتت فيه (خديجة) وعمّه (أبو طالب) (عام الحزن) ، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، لما أصابه فيه من همّ وغمّ[1] .

وللعرب كما لغيرهم من الشعوب مصطلحات وتعابير خاصة ، يعبرون بها عن آلامهم وأحزانهم وما يجيش في صدورهم من أحزان . منها تعابير يستخدمها المحزون نفسه تعبيراً عن حزنه وآلامه الشديدة ، ومنها تعابير يستعملها المحزون في الرد على من يتفضل عليه بمواساته للتخفيف عن آلامه،بأن يدعو لهم ويشكرهم على تكليف أنفسهم مشقة المجيء اليه لمؤاساته أو مشاركتهم له في حزنه . ومنها تعابير يقولها المؤاسون للشخص المحزون للتخفيف عن مصابه وللترويح عنه ولإظهار حزنهم له ومشاركتهم له في أحزانه .

كما أن لهم كما لغيرهم علامات وشعارات يظهرونها للناس لإشعارهم بأنهم مصابون بآلام وأحزان ، وبحلول نكبات وكوارث بهم . وذلك مثل لبس ألبسة خاصة تكون شعاراً خاصاً بالحزن ، وذرّ الرماد أو التراب على الرأس أو تلطيخ الرأس والوجه بالطين ، وترك الشعر ينمو دون حلق ولا إجراء تعديل فيه أو ترك دهنه مدة معينة إظهاراً للحزن على ميت ، وما الى ذلك من علامات ، هي ضرورية ولازمة جداً ، بالنسبة للمحزون أو للمحزونين والمفجوعين ولأصدقائهم ، إذ أن اهمالها وتركها هو في نظرهم عيب ومنقصة على المفجوع وعلى أصدقائه وعلى آله على حدّ سواء . ثم هي تقاليد لا بد من مراعاتها والمحافظة عليها .

ومن ذلك أيضاً : النداء . وذلك بإعلان شخص عن المصيبة بصوت عال يسمع حتى يشاركه الناس مصيبته أو ليحصل منهم على ما يرجوه من مساعدة .

---

١ تاج العروس (٩/٧٤) ، (حزن) .

مثل واسوء صباحاه : في المصيبة التي تقـع في آخر الليل وأول النهار . أو أن يعلن عن وفاة كبير وذلك بأن ينادي بصوت عال في الأحياء وفي الأماكن العامة عن موت ذلك الكبير بعبارات مؤثرة وبصوت رخيم . ليكون ذلك معلوماً لأهل المكان ، فيتجمعون حول المفجوع ويشاطرونه حزنه ويشتركون في تشييع الجنازة .

ويعبر عن الكوارث والآفات والمصائب بلفظة (لمت) ، في بعض اللهجات العربية الجنوبية ، كما في هذه الجملة : (كل لمت لمت) ، ومعناها من كـل ملمة ألمت ، او من كل نازلة نزلت[1] . وفي هذا المعنى أيضاً جملة : (بعـد حدثت حدثت)[2] أي بعد حادثة حدثت ، أو بعد الحادثة التي حدثت ، أو بعد الفاجعة التي حدثت .

ويقال لما يصيب الناس من عظيم نوب الدهر : (دواهي الـدهر) . وإذا نزلت بشخص مصيبة قالوا : (دهته داهية) ، وقد يقولون (داهية دهياء) على سبيل التوكيد والمبالغة . ويقول الشخص : دهيت . وتقول ما دهاك ؟ أي ما أصابك.وكل ما أصابك من منكر من وجه المأمن فقد دهاك دهياً . والدهياء : الداهية من شدائد الأمر .

أخو محافظة ، إذا نزلت به دهياء داهيـة من الأزم[3]

والاصطلاح الشائع عن هلاك الإنسان وفقده الحياة هو (الموت)[4] . وقد وردت هذه اللفظة في لهجات عربية أخرى ، مثل اللهجة الصفوية والحيانية[5] وهناك ألفاظ أخرى تؤدي معنى الموت والهلاك . مثل الهلاك والمنايا والأحداث والحِمام والأجل والحتف والقدر والمنون والزمـان والسأم والنحب وغير ذلك[6] . وهي مصطلحات جاهلية ، بعضها من المصطلحات القديمة ، لها معان أوسع من مصطلحات الموت. ولكن ربط بينها وبين هذا المصطلح لما لها من صلة بهلاك الإنسان وبمصـيره ، فجعلت تؤدي معنى الموت .

---

١ راجع السطر السادس من النص : Glaser 131, CIH 99.

٢ Rhodokanakis, Stud., II, S. 160.

٣ اللسان (١٤/٢٧٥) ، (دها) .

٤ المخصص (٦/١١٩) (اسماء الموت) .

٥ W. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, S. 149.

٦ اللسان (٢٠/١٦١) ، تاج العروس (١٠/٣٤٧) .

وهلك بمعنى مات ، معروف عند أهل اللغة[1] . وقد وردت اللفظة بهذا المعنى في نص النمارة الذي يعود تأريخه الى سنة ٣٢٨ م. وأما المنية ، فالموت كذلك في نظر علماء اللغة ، لأن المنى القدر والموت قدر علينا[2] . وأما الحتف ، فهو الموت أيضاً ، وجمعه حتوف . وهو معنى مجازي جاهلي متأخر . ورد في المثل: (مات حتف أنفه) . أي على فراشه من غير ضرب ولا قتل ولا غرق ولا حرق ، وخص الأنف لأنهم كانوا يتخيلون أن روح الرجل تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته . وهناك مثل آخر يشبهه وهو (مات حتم فيه) لأن الفم مجرى النفس كذلك[3] .

وترادف لفظة (الميت) و (ميت) لفظة (جنز) في العربيات الجنوبية[4]. وذكر علماء العربية ان الجنازة الميت[5] ، فهي في معنى لفظة (جنز) الواردة في المسند .

وقريب من معنى (مات حتف نفسه) ، ما ورد في بعض النصوص الصفوية من تعبير (رغم مني)[6] ، فإنه يريد ان الشخص لم يمت قتلاً ، وانما مات رغماً منه ، مات بمنيته وبأجله .

ويعبّر مصطلح (مات بحد السيف) أو (مات صبراً) ، عن معنى ان الوفاة لم تكن طبيعية ، وانما كانت قتلاً ،إما بضرب عنقه ، وإما بوسائل أخرى من وسائل التعذيب ، صبر عليها ذلك الشخص ، حتى مات .

وورد : (الموت الأبيض) و (الموت الأحمر) . الأبيض الفجأة ، أي ما يأتي فجأة ، ولم يكن قبله مرض يغير لونه. والأحمر الموت بالقتل لأجل الدم[7].

والانتحار ، أي قتل الانسان نفسه ، معروف عند الشعوب القديمة ، ويكون إما بإزهاق الانسان روحه باستعمال آلة حادة ، مثل سكين أو خنجر وما شابه ذلك ، وإما برمي الشخص نفسه من محل مرتفع ، أو بإغراق نفسه ، أو بإحراق

---

١ اللسان (١٢/٣٩٤) ، تاج العروس (٧/١٩٤) .
٢ اللسان (٢٠/١٦١) ، تاج العروس (١٠/٣٤٧) .
٣ اللسان (١٠/٣٨٢) ، تاج العروس (٦/٦٤) ، القاموس (حتف) .
٤ South Arablan Inscriptions, P. 430.
٥ تاج العروس (٤/١٨) ، (جنز) .
٦ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, II, 1953, p. 20.
٧ تاج العروس (٥/١٠) ، (بيض) .

نفسه بنار ، وما إلى ذلك . ويعد من الأعمـــال الشريرة في الأديان . ويعبّر في العربية بـ (قتل نفسه) عن (الانتحار) .

ومن الألفاظ التي تعني الموت : القشم . يقال : قشم الرجـــل قشماً ، أي مات[1] . وأم قشعم ، فإنها تعني المنية ، كما تعني الحرب والداهية[2] . والحِمام ، لأنه قضاء الموت وقدره[3] . و (أم اللهيم) : ويراد بها (الحمى) ، ويكنى بها عن الموت ، لأنها تلتهم كل أحد . وقيل : هي (المنية) ، وكنية الموت ، لأنها تلتهم كل أحد[4] .

ويعبّر عن الحالات التي يكون فيها المرض قد اشتد بالمريض حتى صار يشرف على الموت بتعابير خاصة مثل : (سكرات الموت) و (الحشرجة) ، ويراد بها تردد النفس[5] .

ويعبّر عن القتل المعجل بالقصص ، فيقال مات فـــلان قصصاً ، إذ أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه . ويقال ضربه فأقصصه ، أي قتله في مكانه[6] .

وللدهر والحدثان والزمان والقدر ، صلات قوية بالموت ، إذ تنسب اليها إماتة الانسان . والدهر على الأخص مسؤول في نظر أهل الجاهلية عن قوارع الزمان وحوادثه التي تنزل بالانسان . انه هو المبيد ، وهو المهلك ، وهو المفقر ، فهو اذن بالنسبة إلى الجاهليين رأس كل بلاء . ولكنهم بدلاً من التقرب اليه والتودد له ليبتعد عنهم ، وليرأف بحالهم كانوا لا يستطيعون ضبط أعصابهم عنـــد نزول الشدائد بهم ، فيسبّونه ، لذلك ورد ان الرسول نهى عن سبّ الدهر فقال : « لا تسبّوا الدهرَ ، فإن الله هو الدهر » . وجعل الدهر في الاسلام من أسماء الله الحسنى ، وذكر انه ورد في الحديث القدسي : « يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر ، وانما أنا الدهر »[7] .

والموت في نظر الجاهليين مفارقة الروح للجسد لسبب من الأسباب التي تؤول

---

١ اللسان (١٢/٤٨٤) ، (صادر) .
٢ اللسان (١٢/٤٨٥) ، (صادر) ، قاموس المحيط (٤/١٦٥) ، (١٩٣٥ م) .
٣ تاج العروس (٨ /٢٥٨) .
٤ اللسان (١٢/٥٥٤) .
٥ تاج العروس (٢/٢٢) .
٦ اللسان (٧/٧٨) ، (صادر) ، تاج العروس (٤/٤٢٤) .
٧ تاج العروس (٣/٢١٨) ، اللسان (٢/٤٣٧) ، (٦/٣٨٢) .

إلى هلاكه . تخرج الروح من الأنف أو من الفم وذلك في الموت الطبيعي وفي موت الفجأة . أما إذا كان الموت بسبب جرح ، فإن الروح تخرج على ما ذكره الأخباريون من الجرح[1] . والروح قد تتحول وتصير طائراً يرفرف فوق قبر الميت يسمى (الهامة) في حالة كون الميت قتيلاً .

واعتقد بعض الجاهليين ان الموت أجل مثبت وأمر معين محتم ، وهو لا يأتي إلا في حينه . فإذا جاء الأجل كان حذر الانسان وجبنه غير دافع عنه المنية إذا حلت به . وذكر ان أول من قال ذلك (عمرو بن مامة) في شعره . وفي حديث عامر بن فهيرة :

والمرء يأتي حتفه من فوقه

ولحنش بن مالك بيت في الحتوف ، إذ يقول :

فنفسك احرز فإن الحتو ف ينبان بالمرء في كل واد[2]

وكلمة (الروح) من الكلمات المعروفة عند الجاهليين . وقد صورتها بعض الأخبار الإسلامية حفظة على الملائكة ، وجعلت لها وجهاً كوجه الإنسان وجسداً كجسد الملائكة،ولا يمكن رؤيتها كما لا يمكن رؤية الملائكة[3] . بها يعيش الإنسان وبها حياة الأنفس . وقد سأل الجاهليون الرسول على ماهية الروح،فنزلت الآية : « يسألونك عن الروح قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً »[4] . ويذكر المفسرون أن سائليه هم اليهود[5] او ان اليهود علموا المشركين أن يسألوه عن الروح محاولين بذلك إثارة مشكلة للرسول كانت مهمة في أعين الناس يومئذ ، مما يدل على أهمية هذه القضية في ذلك العهد .

ويظهر من تمحيص الأخبار الواردة عن الموت والقبر وأشباه ذلك أن عقيدة الجاهليين ان الروح متصلة بالجسد ملازمة له في أثناء الحياة ، فإذا وقع الموت انفصلت عن الجسد وفارقته . ثم اختلفوا فيما بينهم في مصير الروح ، فمنهم من

---

١ اللسان (٣٨٢/١٠) ، تاج العروس (٦٤/٦) .
٢ اللسان (٣٨/٩) ، (حتف) ، تاج العروس (٦٤/٦) ، (حتف) .
٣ تاج العروس (١٤٧/٢) ، اللسان (٢٨١/٣ وما بعدها) .
٤ الاسراء ، الاية ٨٥ .
٥ الجلالين (٢٢٠/١) ، الروض الانف (١٩٦/١ وما بعدها) .

تصورها وهي ملازمة (قبر صاحبها لا تفارقه ، وكأنها لا تريد أن تفارق الجسد الذي كانت مستقرة فيه) . فصارت المقابر موضع تجمع الأرواح ، ومنهم من ذهب الى هلاكها بهلاك الجسد أو تحولها أرواحاً تسبح في عالم الأرواح . ونجد في حديث (مجاهد) أن (الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك)[1] . تفسيراً لرأي بعض الجاهليين في مدة بقاء الروح حول القبر . وهناك أحاديث أخرى يظهر منها ان الروح تلازم القبور فلا تفارقهم .

وهناك كلمة أخرى لها صلة وعلاقة متينة بهذه الكلمة . هي لفظة (النفس). وهي من الكلمات الجاهلية القديمة التي وردت في النصوص ، معناها الروح والشخص والذات والجسد . وقد ذكر لها علماء اللغة جملة معان استعملت في الأكثر على سبيل المجاز . ولم يفرق بعض هؤلاء بين الروح والنفس[2] . ويظهر من بعض التعابير والجمل التي كان يستعملها الجاهليون مثل (خرجت نفس فلان)و(فاظت نفسه) (فاضت نفسه) أن المراد بالنفس الروح[3] . وقد تصور بعضهم أن النفس الدم ، وإنما سمي الدم نفساً لأن النفس تخرج بخروجه . وفي الحديث : « ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه[4] » ولبعضهم آراء في التفريق بين الاثنين نشأت في العهد الإسلامي . ولا سيما من ورود استعمال الكلمتين في معان متعددة في القرآن الكريم وفي الحديث .

ويُعَدّ (المرض) من جملة الآثام التي تنزلها الآلهة بالإنسان ، لخروجه على أوامرها ولعدم أداء ما عليه من واجبات وفروض تجاهها ، ومنها الحقوق التي فرضتها عليه ، وفي رأسها النذور والصدقات والزكاة التي امرت الآلهة بتقديمها

---

١ كتاب الروح : لابن قيم الجوزية (ص ١١٥) .

٢ المخصص (٦٢/٢) ، الروض الأنف (١٩٦/١ وما بعدها) .

٣ (وكذلك فاضت نفسه ، أي خرجت روحه . نقله الجوهري . عن أبي عبيدة والفراء ، قالا : وهي لغة في تميم . وأبو زيد مثله . قال : وقال الاصمعي : لا يقال فاض الرجل ولا فاضت نفسه ، وانما يفيض الدمع والماء . زاد في العباب : ولكن يقال فاظ بالظاء اذا مات ، ولا يقال بالضاد البتة) . تاج العروس (٧١/٥) . (فاض) ، (قال الجوهري : وكذلك فاظت نفسه ، أي خرجت روحه . عن أبي عبيدة والكسائي وعن أبي زيد مثله ـ وقال الاصمعي : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لا يقال فاظت نفسه ، ولكن يقال فاظ اذا مات) . تاج العروس (٢٥٨/٥). (فيظ) .

٤ اللسان (٢٣٣/٦ وما بعدها) .

الى معابدها . ولهذا نجد المريض يتوسل بآلهته لكي تصفح عنه وتعفو عن تقصيره تجاهها ، وأن تعيد اليه ما اخذته منه من صحة وعافية في مقابل تقديم نذر لهـا ووفائه بقيامه بكل ما أمرت به من واجبات تجاهها . وفي المتاحف الخاصة والعامة مئات من الكتابات الجاهلية في هذا المعنى ، ومئات أخرى ، كتبت شكراً وحمداً للآلهة ، إذ سمعت توسلات عبيدها بأن تمن عليهم بالصحة والعافية ، فمنت عليهم ولهذا فإنهم كتبوا كتاباتهم تلك للتعبير عن شكرهم لها ، ولمناسبة تقديمهم النـذر الذي نذروه لمعابد الآلهة .

نعي الميت :

ويكون الاعلان عن موت شخص بالبكاء وبالنعي ، ويتوقف نعي الميت والبكاء عليه على قدر منزلة الميت ودرجة أهله ومكانتهم الاجتماعية . ويعـد نعي الميت وشق الجيوب عليه من وسائل التقدير والإكرام وتبجيـل الميت ، ولذلك كانوا يوصون قبل موتهم بنعيهم للناس نعياً يليق بهم ، ويقوم بذلك ناع أو جملة نعاة. يركب الناعي فرساً ويسير ينعى الميت بذكر اسمه وتمجيده ليسمع بذلك القوم ، قائلاً : (نعاء فلان ...) وترد كلمة (الناعي) و (النعاة) كثيراً في الشعر وفي النثر[1] . وقد كان الجاهليون يستغلون نعي القتلى للتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ويقال لذلك : (التناعي)[2] .

وقد نُهي في الاسلام عن (نعي الجاهلية) ، وذلك لمـا كانوا يبالغون من النداء بموت الشخص وذكر مآثره ومفاخره ورثاءه رثاء يتجاوز الحد[3] .

والولولة والنياحة على الميت من التقاليد التي تشدد فيها أهل الجاهلية ، وكانت عندهم سمة من سمات التقديس . ولهذا كان أهل الجاه والغنى والأشراف يستأجرون النائحات للنياحة على الميت في بيته وخلف نعشه إلى القبر وفي مأتمـه ، ويبالغون في ذلك تبعاً لمنزلة المتوفي . وتلك عادة متبعة عند غيرهم أيضاً، فقد كان العبرانيون

---

١ أقول لما أتاني الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجل
بلوغ الارب (٣/١٣) ، تاج العروس (١٠/٣٧٣) ، (نعى) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٧٣) ، (نعى) .
٣ القسطلاني ، ارشاد (٢/٣٧٨) ، (باب الرجل ينعى الى أهل الميت نفسه) .

يستأجرون النادبات ليندبن الموتى[1] . كما كان الرومان يتبعون هذه السنة .

وكلمة (الرثاء) من الكلمات الجاهلية وهي تعني بكاء الميت وتعديد محاسنه ونظم الشعر فيه ، ويقال للمرأة النوّاحة ، والتي ترثي بعلها أو غيره من الأقارب والأعزاء ممن يكرم عندها (الرثاءة) و (الرثاية)[2] . وأما (المناحة) ، فهي إجتماع النساء في مناحة لاظهار حزنهن على الميت . ويقال للإجتماع (نياحة) أيضاً . والكلمة من الكلمات الجاهلية كذلك[3] . ويفهم كثير من الناس من كلمة (مأتم) المصيبة واظهار الحزن والنوح والبكاء،وليس هو كذلك ، وإنما (المأتم) في عرف أهل اللغة المجتمع يجتمع فيه النساء في حزن أو فرح في خير أو شرّ ، ويطلق على اجتماعات الرجال والنساء[4] .

وفي الشعر الجاهلي أبيات يحث فيها الشعراء أهلهم ويوصونهم بالبكاء وبالنوح عليهم إذا ماتوا . فقد ذكروا أن طرفة بن العبد خاطب ابنة أخيه معبد بهذا البيت :

فإن متُ فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد[5]

وذكروا أن الشاعر حازم بن أبي طرفة الحارث بن قيس الشدّاخ الكناني ، وهو شاعر جاهلي أوصى ابنته لما شعر بدنو أجله بأن تبكي والدها وأن تندبه وتذكر محامده وفعاله ، وذلك في هذين البيتين :

بنية إنّ الموت لا بد لاحق بشيخك ماضي الأنام المودّع
فإن قمت تبكيني فقولي أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوّع[6]

أما الشاعر لبيد ، فقد أوصى ابنته بهذه الوصية لما حضرته الوفاة :

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر ؟

---

١ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠٠) .
٢ تاج العروس (١٠/١٤٤) .
٣ تاج العروس (٢/٢٤٣) ، (نوح) .
٤ تاج العروس (٨/١٧٩) .
٥ بلوغ الارب (٣/١٠١) .
٦ الامدي المؤتلف (ص ١٠٠) .

فقوما وقولا بالـذي تعلمانه ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا : هو المرء الذي لا صديقَه أضاعَ ولا خانَ الأمين ولا غدر[1]

وهي وصية فيها تعقل واقتصاد بالنسبة الى طلبات غيره ممن كان يرى البكاء والنياحة وخمش الوجوه وحلق الشعور وإظهار أكثر ما يمكن من مظاهر الحـزن والتوجع والتألم وأمثال ذلك ، هي سيماء من سيماء التقدير والتعظيم والاحترام للميت بل للاحياء من آله وأقربائه أيضاً ، لأنها دلالة على شدة تألمهم لذهاب فقيدهم، وعلى انهم لا يبالون في الإنفاق في شيء حتى في إيلام أنفسهم وتوجيع أجسامهم وهلاكهم في سبيله ، وانهم كرماء لا يبالون في البذل في سبيل من يفتقدونه .

وما كان لبيد ، ليقنع بهذا المأتم لو كان على رأي أهل الجاهلية . فمأتمه هذا مأتم بارد لا يليق بمقام رجل جاهلي ، ولكنه كان مسلمـاً ، دفعه إسلامه على القناعة في مأتمه وعلى الاكتفاء بهذا القليل . فقد ورد في الحديث : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله » ، وأن الرسول قال : « ليس منّـا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » ، وانه « بريء من الصالقة والحالقة والشاقة »، وانه قال : « اثنتان في الناس هما بهما كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت» إلى غير ذلك من أحاديث تنهى عن هذه المظاهر ، التي هي في نظر الاسلام من سيماء أهل الجاهلية[2] .

ويصحب البكاء شق الجيب وتعفير الرأس بالتراب واجتماع النسوة اياماً لندب الميت وذكر مناقبه . تقوم بذلك نادبات ممتهنات أو غيرهن ممن رزقن موهبة القول في مثل هذه الأحوال من أفراد الأسرة أو القبيلة أو الحي أو القرية . وفي بيت لـ (طرفة بن العبد) نجده يوصي بنعيه بما يستحقه وبشق الجيب عليه[3] . وقد يمتد نعي الميت ورثاؤه حولاً كاملاً ، وهي مدة عزاء أهل الجاهلية[4] . فإذا انتهى

---

١ بلوغ الارب (٣/١١) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٢ وما بعدها) ، (من الجاهلية النياحة على الميت) البخاري : التاريخ الكبير (١/٢٣٢) ، (ثلاث من فعل الجاهلية لا يدعهن أهـل الاسـلام : استسقاء بالكواكب وطعن في النسب ، والنياحة على الميت) ، الاصابة (١/٢٤٧) القسطلاني ارشاد الساري (٢/٤٠٤) ، (باب ما يكره من النياحة على الميت) .
٣ فان مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد
بلوغ الارب (٣/١١) .
٤ تاج العروس (٦/٣٢٠) ، بلوغ الارب (٣/١٢) .

الحول وقد بكوه البكاء الذي استحقه الميت عذر أقرباؤه عن الإستمرار في بكائه إلاّ في المناسبات . قال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر[1]

وتعرف التي ترفع صوتها بالنياحة بـ (الصالقة) . وأما التي تحلق شعرها عند نزول المصيبة فيقال لها (الحالقة) . وأما التي تشق جيبها ، فيقال لها (الشاقة). ويقال لتعديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت النادبة ولعملها الندب[2] . والظاهر أن الندب كان خاصاً بالنساء ، وإن وردت كلمة (نادب) عند اللغويين[3] .

وقد نهى الإسلام عن (الصلق) ، ورد في الحديث : « ليس منا من صلق أو حلق أو خرق » . أي ليس منا من رفع صوته عند المصيبة وعند الموت. ويدخل فيه النوح أيضاً[4] . و (السالقة) ، هي بمعنى (الصالقة) ، وهي لهجة ولا شك من لهجات القبائل ، وقد وردت في رواية أخرى للحديث المذكور أيضاً[5] .. ولطم الخدود وخمشها وشق الجيوب وذر التراب أو الرماد أو وضع الطين على الرأس والخدود عادة لا ينفرد بها العرب وحدهم ، بل هي موجودة عند غيرهم من الأمم أيضاً . وفي التوراة آيات تشير اليها كلها وتعدّها من دلائل الحزن والأسى الشديد والتوجع على الميت . وهي كلها مذكورة فيها من البكاء والنحيب على الميت الى ذرّ الرماد والتراب أو وضع الطين على الرأس الى شق الجيوب ولطم الصدر والخدود .

وليست عادة استئجار النادبات بعادة خاصة بالعرب الجاهليين، فقد كان العبرانيون يستأجرون النادبات كذلك ليندبن الميت ، وقد أشير الى ذلك في التوراة[6] ، ولعلها من العادات السامية القديمة المعروفة عند بقية الساميين .

---

١ بلوغ الارب (٣/١٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/١٣) .
٣ تاج العروس (١/٤٨١) . « ندب » .
٤ « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، برىء من الصالقة والحالقة والشاقة » ، صحيح مسلم (١/٧٠ وما بعدها) ، « باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية » تاج العروس (٦/٤١١) .
٥ تاج العروس (٦/٣٢٠ وما بعدها ، ٣٨٢) .
٦ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٠٠) .

ويقال لمدّ الصوت بالنحيب (النقع) ، وأما مـدّ اللسان بالولولة ونحوها ، فيقال له (اللقلقة)[1] .

ويحترم الجاهليون الموت والميت فكانوا يقومون إذا مرت بهم جنازة، ويقولون إذا رأوها : (كنت في أهلك مائتاً مرتين) . أما أهل الميت وأقرباؤه وأصدقاؤه فكانوا يسيرون أمام الجنازة وخلفها الى المقبرة[2] .

وتحفر النساء رؤوسهن بالتراب وبالرماد وبالطين ويلطمن خدودهن بأيديهن ، كما كنّ يلطخن رؤوسهن بالطين ويسرن مع الجنازة إظهاراً للحزن والجزع على الفقيـد . وترافقهـن النادبات والمولولات ، يندبن الميت ويولولن عليه ، يسرن حافيات مبالغة في إظهار الحزن .

وكانت العرب لا تندب قتلاها ولا تبكي عليها حتى يثأر بها ، فإذا قتل قاتل القتيل ، بكت عليه وناحت[3] .

ويتبين من حديث (عمرو بن العاص) ان من عادات الجاهليين حمل النار مع الجنازة تصطحبها اصطحاب النائحة لها . وقد أباح (عمرو) لأهله نحـر جزور عند قبره لتوزيع لحمها على المحتاجين ، وأن يقيموا حول قبره حتى يستأنس بهم، وينظر ماذا يراجع به رسل ربه[4] . ونجد مثل ذلك في خبر يذكر ان (أبا موسى الأشعري) لما حضره الموت دعا ابنه ، فقال : « أنظروا اذا أنا مت فلا تؤذنن بي أحداً ولا يتبعني صوتٌ ولا نار »[5] . ويدل ذلك على ان عادة حمل النار مع الجنازة بقيت زمناً في الاسلام .

ويؤخذ من شعر للأفوه الأودي ان الجاهليين كانوا يغسلون موتاهم قبل دفنهم[6]. وذكر (اليعقوبـي) ، انه لما مات عبد المطلب (أعظمت قريش موتـه وغسل بالماء والسدر . وكانت قريش أول من غسل الموتى بالسدر ، ولف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال ذهب وطرح عليه المسك حتى ستره ، وحمل على

---

١ الاغاني (١٢/١٥) .
٢ عمدة القاري (٢٩٣/١٦) .
٣ نهاية الارب (١٣٢/٣) .
٤ صحيح مسلم (٧٨/١) ، « كتاب الايمان » كتاب الروح ، لابن القيم الجوزيـه (ص ١٠) « الطبعة الثالثة » حيدر اباد ١٣٥٧ هـ .
٥ طبقات ابن سعد (١١٥/٤) ، « صادر » .
٦ الطبري (٢٨٨/٢) ، بلوغ الارب (٢٨٨/٢) .

أيدي الرجال عدة ايام إعظاماً وإكراماً وإكباراً لتغيبه في التراب)[1] .

وغسل الجاهليون موتاهم بالخطمي والأشنان[2] ، وما شابه ذلك من مواد لإزالة الأوساخ عن جسم الميت وتطهيره . كما وضعوا الطيب مع الكفن ليطيب الميت فيذهب مطيباً الى قبره .

ويحمل سرير الميت الذي وضع عليه على الأكتاف لايصاله الى قبره ، ويقال له (النعش) كذلك . وقد يحمل في محفة ، وقد يحمل على الإبل لايصاله الى قبره اذا كان القبر بعيداً . ويتبارى الأقرباء والأصدقاء في حمل نعش الميت احتراماً له وتقديراً لشأنه . وورد أن (السرير النعش قبل أن يحمل عليه الميت،فإذا حمل عليه فهو جنازة)[3] .

وذكر بعض أهل الأخبار أن النعش لم يكن معروفاً عند العرب ، وأن أول من عمل له النعش (زينب بنت جحش) زوج النبي ، أو فاطمة الزهراء ، أي في الإسلام.وقد قلد في ذلك أهل الحبشة الذين كانوا يصنعون نعوشاً لموتاهم[4]. وذكر أن (النعش) في الأصل الذكر الحسن . (إذا مات الرجل ، فهم ينعشونه، أي يذكرونه ويرفعون ذكره) . و (النعش شبه محفة كان يحمل عليها الملك إذا مرض وليس ينعش الميت . وأنشد للنابغة الذبياني :

ألم تر خير الناس أصبح نعشه على فتية قد جاوزوا الحيّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خلده يرد لنا ملكاً وللأرض عامرا

قال : فهذا يدل على أنه ليس بميت . وقيل هذا هو الأصل ثم كثر في كلامهم حتى سمّي سرير الميت نعشاً . وإنما سمي لارتفاعه ، فإذا لم يكن عليه ميت محمول فهو سرير)[5] .

وقد كنى (الأسود بن يعفر النهشلي) عن النعش ، أي سرير الميت بـ (ذي

---

١ اليعقوبي (٢/ ١٠) « النجف » .
٢ تاج العروس (٨/ ٤٤) ، (غسل) .
٣ تاج العروس (٣/ ٢٦٥) ، (سرر) .
٤ المعارف (ص ٢٤١) .
٥ تاج العروس (٣/ ٣٥٧) ، (نعش) ، المخصص ، لابن سيده ، (٦/ ١٣٠ وما بعدها) .

الأعواد) . وسبب ذلك على ما يقوله علماء اللغة أن البوادي لا جنائز لهم ، فهم يضمون عوداً الى عود ويحملون الميت عليها الى القبر وذكر انه أراد بقوله :

ولقد علمت سوى الذي نبأتني أن السبيل سبيل ذي الأعواد

لو أغفل الموت احداً لأغفل ذا الأعواد ، وأنا ميت مثله . وذو الأعواد الذي قرعت له العصا ، (غويّ بن سلامة الأسيدي) ، أو هو (ربيعة بن مخاشن الأسيدي) ، أو هو (سلامة بن غوي) على اختلاف في ذلك . قيل كان له خرج على مضر يؤدونه اليه كل عام فشاخ حتى كان يحمل على سرير يطاف به في مياه العرب فيجبيها . وفي اللسان : قيل هو رجل أسن ، فكان يحمل على محفّة من عود ، أو هو جدّ لأكثم بن صيفي المختلف في صحبته . وهو من بني أسيد بن عمرو بن تميم . وكان أعز أهل زمانه ، فاتخذت له قبة على سرير ، ولم يكن يأتي سريره خائف إلاّ أمن ، ولا ذليل إلا عزّ ولا جائع إلا شبع وهو قول أبي عبيدة . وبه فسر قول الأسود بن يعفر النهشلي[1] .

ويحمل الموتى على (الحرج) أيضاً . والحرج خشب يشدّ بعضه الى بعض ثم يحمل فيه الموتى[2] .

وللعلماء آراء في الجنازة . ذكر بعض منهم ان الجنازة من الجنز بمعنى الستر ، وذكر بعض آخر ان اللفظة من ألفاظ النبط ، وتعني جنز في لغتهم الإخفاء ، ويقصدون بالنبطية لغة بني إرم[3] . معنى جملة (جنز الميت) عندهم ، وضع الميت على السرير وصلاة الكاهن عليه[4] . وذكر بعض العلماء ان الجنازة بالكسر ، الميت وبالفتح السرير ، وذكر بعض آخر العكس . وذهب فريق آخر الى ان الجنازة الميت نفسه ، لذلك لا تكون جنازة حتى يكون ميت ، وإلا ، فهو سرير أو نعش . فالجنازة على هذا الرأي ، الميت محمولاً على سرير أو نفش ، أو تابوت في الاصطلاح الحديث[5] . وبهذا المعنى يعبّر عن الجنازة في الوقت الحاضر .

---

١ تاج العروس (٢/٤٤٠) ، (عود) .
٢ المخصص (٦/١٣٠ وما بعدها) .
٣ تاج العروس (٤/١٨) .
٤ غرائب اللغة (١٧٧) .
٥ تاج العروس (٤/١٨) ، (جنز) .

وصلاة الجنائز ، هي الصلاة التي تقام عـلى جنازة الميت ، أي الميت وهو في تابوته ، ليرسل الى القبر ، وهي صلاة أقرها الاسلام ، وقد أفرد لها باب في كتب الحديث والفقه يعرف بـ (كتاب الجنائز)[1] .

والعادة عند أكثر السامين السير بسرعة في الجنـازة . فيسرع المشيّعون الذين يسيرون مع الجنازة الى موضع القبر في مشيهم للوصول بالجنازة بسرعة اليه . وقد أشير الى هذه العادة في كتب الحديث[2] . والظاهر ان لطبيعة الجو دخل في ظهور هذه العادة .

ويقال لتهيئة الميت ودفنه في القبر (تجهيز الميت) . ويقوم الأبناء والأقرباء بوضعه في لحده . واذا كان الميت عزيزاً كريماً في قومه سيداً رئيساً اشترك الرؤساء في إدخاله القبر ، وقد يتنافسون في نيل هذا الشرف ، وقـد يؤدي هذا التنافس الى وقوع الشر بين المتنافسين ، لأن تجهيز الميت ووضعه في لحـده من علامات تقدير الميت وتعظيمـه ، ومن دلائل قرب من دخل القبر من الميت واتصالهم الوثيق به[3] .

ويقال للميت عند وضعه في قبره : (لا تبعد)[4] ، أي انه وان ذهب عنهم سيكون دائماً معهم وفي قلوبهم . ولعل هذا التفكير هو الذي حملهم على إخراج حصته مما كانوا يأكلونه ويشربونه يسمّونها باسم الميت ، وعلى زيارة قبور الموتى والجلوس عندهم وضرب الخيام حولها ، وعلى مناجاة صاحب القبر بذكر اسمـه وتحيته ، لأن روح الميت في رأيهم حية لا تموت . ولهـذا السبب أيضاً كانوا يسقونها بصب شيء من الماء على القبر ، كما كانوا ينضحونه بالدم . وبهذا المعنى يفسر ما ورد في الشعر وفي النثر من سقي الغمام للقبر ، ونزوله عليه ، وما ورد من شرب الخمر على القبر وسكب بعضه عليـه . وقد كان العبرانيون يخرجون

---

١ صحيح مسلم (٢١٩/٦) .

٢ ارشاد الساري (٤٢٠/٢ وما بعدها) .

٣ Hasting, Vol. II, P. 731.

٤ وفي هذا المعنى ورد في شعر مالك بن الريب المزني :
يقولون : لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد الا مكانيا
بلوغ الارب (١٤/٣ وما بعدها) الامالي ، للقالي (١٣٧/٣) .

حصة مما يأكلونه لتكون من نصيب الموتى[1] . ويذكر أهل الأخبار ان الناس كانوا يسكبون الخمر على قبر (الأعشى) بـ (منفوحة) اليمامة ، وذلك لولعه بها وتقديراً لذكراه .

ويدفن بعض العرب الميت بملابسه ، ويغطى رأسه . ويكفن بعضهم موتاهم ويدفنونهم مكفنين . ويذكر علماء اللغة ان من أسماء الكفن الجنن ، واستشهدوا على ذلك ببيت للأعشى[2] . وفي الحديث : (ان ثمود لما استيقنوا بالعذاب تكفنوا بالأنطاع وتحنطوا بالصبر ، لئلا يجيفوا وينتنوا . يضعون الحنوط في أكفان الميت).[3] كما وردت كلمة (أكفاني) في بيت لامرىء القيس[4] ، مما يدل على معرفة الجاهليين للكفن . وقد كان قدماء العبرانيين يدفنون موتاهم بملابسهم التي كانوا يستعملونها ، أي كما كان يفعل قدماء الجاهليين ، ثم كفّن المتأخرون منهم موتاهم بكفن مكوّن من قماش أبيض مصنوع على الأكثر من الكتان على هيأة البرد اليماني يلفّ على جسم الميت ، وربطوا الرأس بمناديل ، كما ربطوا يدي الميت وقدميه برباط خاص ، على النسق الذي أقر في الاسلام[5] .

ويظهر من الأخبار الواردة عن تكفين رسول الله ، ان أهل مكة أو الحجاز عامة كانوا يفضلون الأكفان السحولية ، وهي أثواب بيض سحولية من كرسف، اي من قطن . وقد نسجت في (سحول) ، وهي قرية باليمن منها هذه الثياب . وقد كره الإسلام تكفين الموتى بالمصيّغات ونحوها من ثياب الزينة ، كما كره التكفين بالحرير ، بل حرم بعض العلماء التكفين فيه[6] . وقد كان أغنياء الجاهلية يكفنون موتاهم بالألبسة الغالية ، مبالغة منهم في تقديرهم لمنزلة ميتهم عندهم .

---

١ Reste, S. 183.

٢ وهالك أهل يجنونه كاخر في أهله لم يجن
اللسان (٢٤٥/١٦) ، تاج العروس (٣٢١/٩) ، المطبعة الخيرية » .
المحبر (ص ٣١٩ وما بعدها) .

٣ اللسان (١٤٨/٩) ، صحاح الجوهري ، (٢١٨٨/٦) المخصص لابن سيده (١٣٠/٦ وما بعدها) .

٤ اللسان (٢٣٩/١٧) .

٥ قاموس الكتاب المقدس (١٩٩/٢ وما بعدها) .
Ency. Relig., 4, p. 498, Hastings, A Dictionary of Chrit. and Gospels, Vol. I, p. 241.

٦ صحيح مسلم (٢/٧) .

وقد ذكر (اليعقوبي) ، أن (عبد المطلب) لفّ في حلتين يمانيتين ثمينتين[1] وكانت البرود اليمانية مفضلة على غيرها في التكفين . وذكر أنه كان من المستحسن عندهم الإحسان في الكفن . ورويت أحاديث في تحسين الكفن . منهـا : « إذا كفّن أحدكم أخاه ، فليحسن كفنه »[2].

وذكر أن (التحسيب) ، بمعنى التكفين وان لفظة (محسب) بمعنى مكفن. وذكر ايضاً ان التحسيب دفن الميت بالحجارة[3] .

عند وضع الميت في قبره يقوم من يذكر محاسنه وأعماله ، ثم يظهر حزنه وحزن الناس لفراقه ، ويقال لذلك (الصلاة) . وقد أطلق الإسلام على هـذه وعلى الندب والأعمال الأخرى (دعوى الجاهلية) ، ونهى عنها[4] .

ويوارى الميت في حفرته ثم يهال التراب عليه . وإذا كان الميت من أصحاب الاسم والجاه فقد يجصص قبره ويبنى عليه ، ويكتب على قبره اسم صاحبه ومـا يناسب المقام[5] . وكثيراً ما تسمع بنحر الإبل أو عقرها على القبور لتبتل بدمـاء الإبل[6] . ولا سيما إذا كان الهالك من سادات القبائل والأجواد . وإذا حلقت النساء شعورهن حزناً على الميت ، وضعن شعورهن على القبر[7] .

وقد اختلف العلماء في سبب عقرهم للإبل على القبور ، فقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للأضياف[8]. وقال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك اعظاماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام . وزعم بعض آخر أنهم انما كانوا يفعلون ذلك ، لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى اذا بليت فكأنهم يثأرون لهم فيها . وقيل ان الإبل أنفس اموالهم ، فكانوا يريـدون بذلك أنها قد هانت عليه لعظم المصيبة ، وقد نهى الإسلام ذلك بحـديث : « لا عقر في الإسلام »[9] .

---

١ اليعقوبي (٢/١٠) ، « النجف » .
٢ اللسان (١٣/٣٥٨) ، « صادر » تاج العروس (٩/٣٢١) ، اللسان (١/٢٤٦).
٣ تاج العروس (١/٢١٣) ، (حسب) .
٤ ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، للقسطلاني (٢/٤٠٦) .
٥ شمس العلوم الجزء الاول ، القسم الثاني (ص ٢٩١) .
٦ الاغاني (١٩/٨٨) .
٧ الاغاني (١٥/١٢) .
٨ وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخادم وذبائح
بلوغ الارب (٢/٣١٠) .
٩ بلوغ الارب (٢/٣١١) .

واذا وضع الميت في لحده ، أهالوا التراب عليه . وقد ينظم الشعراء شعراً لهذه المناسبة ينشدونه على القبر اظهاراً لحزنهم ولحزن الناس على فراقه .

وطريقة دفن الميت هي العادة الشائعة المعروفة بين الجاهليين ، غير أن هنـــاك من كان يوصي بحرق جثته وذرّ رماده في الهواء ، أو بدفن الرماد في الأرض[1]. وطريقة حرق الموتى ليست من العادات السامية أي من العادات المنتشرة بين الساميين اذ يرون أنهـــا تنافي حرمة الميت وأحكام الآلهة . وكانوا اذا سَبّوا شخصاً أو أرادوا به سوءاً دعوا له بالحرق ، أو قالوا له يا ابن المحروق .

وقد وجد من فحص القبور التي عثر عيهـــا خارج سور (مأرب) أن من الموتى من دفن على هيأة انسان نائم أي وضع متمدداً في لحده ، كما نفعـــل في موتانا وأن بعضهم لم يدفن على وفق هذه الطريقة ؛ ولكن دفن قائماً . وقد عثر في بعض هذه القبور على كتابات قصيرة ، كما عثر فيها على رؤوس منحوتـــه دفنت مع الميت ، لعلّها ترمز الى رمز ديني ، او عقيدة من عقائدهم في الموت، او تمثل الميت نفسه لتكون شاهداً عليه[2] .

ولم نعثر على جثث في جزيرة العرب محنّطة على طريقة المصريين،والذي نعرفه الآن ان الجاهليين كانوا يضعون الحنوط في أكفان الميت وملابسه ليطيب به جسمه وليحفظه مدة طويلة[3] . ويظهر من التفسير الذي يرويه علماء اللغـة لجملة (عطر منشم) الواردة في شعر (زهير بن أبي سلمى) ، ان (خزاعة) وربما غيرها كانت تشترى (الكافور) لموتاها[4] . وقد كانت قريش تضع الكافور مع الميت، وهي عادة استمرت في الاسلام أيضاً .

ويقال : إن منشماً امرأة كانت تبيع الحنوط في الجاهلية ، فقيـــل للقوم اذا تحاربوا : دقوا بينهم عطر منشم ، يراد طيب الموتى[5] ، مما يدل على ان تطييب الميت عادة جاهلية قديمة ، ويقال لطيب الموتى الحنوط . وقد طرح المسك على

---

١ النهاية (٢/١١٥) .
٢ BEITRAGE, S. 28.
٣ اللسان (٩/١٤٨) الصحاح ، للجوهري (٣/١١٢٠) .
٤ شرح ديوان زهير لثعلب (١٥) ، (دار الكتب المصرية) . (١٩٤٤ م) ، ديوان زهير (١١٠) ، (طبعة كرم البستاني) .
٥ المعارف (ص ٢٦٥) .

عبد المطلب لتطييبه[1] ، (وكل ما يطيب به الميت من ذريرة أو مسك أو عنبر أو كافور من قصب هندي أو صندل مدقوق ، فهو كله حنوط)[2] .

وقيل ان منشماً ، هي ابنة (الوجيه) العطارة بمكة من حمير ، وقيل من همدان ، وقيل من خزاعة وقيل من جرهم . وكانت خزاعة وجرهم اذا أرادوا القتال وتطيبوا بطيبها كثرت القتلى فيما بينهم . وذكر انهم كانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا . وقال (الكلبي) : « جرهمية . وكانت جرهم اذا خرجت لقتال خزاعة خرجت معهم فطيبتهم فلا يتطيب بطيبها أحد إلا قاتل حتى يقتل أو يجرح . وقيل امرأة كانت صنعت طيباً تطيب به زوجها ، ثم انها صادقت رجلاً وطيبته بطيبها ، فلقيه زوجها فشم ريح طيبها عليه فقتله . فاقتتل الحيّان من أجله . قال الكلبي : ومن قال منشم بفتح الشين فهي امرأة كانت تنتجع العرب تبيعهم عطرها فأغار عليها قوم من العرب فأخذوا عطرها ، فبلغ ذلك قومها فاستأصلوا كل من شمّوا عليه ريح عطرها . وقد ضرب بها المثل في الشر ، فقالوا : أشأم من عطر منشم »[3] .

وورد أن (المنشم) عطر شاق الدق او شيء يكون في قرون السنبل ، يسميه العطّارون (روقا) . وهو سم سوعة . وقيل : ثمرة سوداء منتنة الريح ، أو حبّ البلسان[4] .

ويجعل الحنوط في مرافق الميت وفي بطنه وفي مربع رجليه ومآبضه ورُفْغَيْه وعينيه وأنفه وأذنيه . يجعل يابساً .

ونظراً لوجود لفظة (حنط) في العربية في المعنى الذي نفهمه من التحنيط ، أي حفظ الجسد ، ولاستعمال الجاهليين (الحنوط) في تجهيز موتاهم ، وهي مواد عطرة[5] ذات رائحة طيبة ولورود اللفظة في العبرانية وفي السريانية (حونطو) ، نرى أن نوعاً من التحنيط كان معروفاً عند الساميين[5] . وان لم يكن بالشكل الذي

---

١ اليعقوبي (٢/١٠) ، « النجف » .
٢ اللسان (٧/٢٧٩) ، « صادر » .
٣ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .
٤ تاج العروس (٩/٧٦) ، (نشم) .
٥ غرائب اللغة (ص ١٧٩) ،
J. W. Gibbs, A Hebrew and English Lexicon, London, 1827, p. 201, Smith, A Dictionary of Bible, Vol., I, p. 545.

كان عند المضريين . ولا يستبعد أن يكون اهل الجاهلية قد مارسوا التحنيط ايضاً، وذلك بالنسبة الى أغنيائهم واصحاب الثراء منهم . ويؤيد هذا الاحتمال مـــا رواه اهل الأخبار من عثور الجاهليين وبعض الإسلاميين على جثث عادية كانت محافظة على هيأتها حتى انها تبدو وكأنها دفنت بالأمس ، وما رووه من عثورهم عـــلى نفائس وأواني وكتابات ، الى جانب تلك الجثث . مما يبعث على الظن بأن تلك الجثث كانت محنطة بطريقة ما .

ولم تستعمل التوابيت المصنوعـــة من الحجارة في نجد والحجاز . أما في بطرا وتدمر فقد اتخذت التوابيت المصنوعة من الحجر والنواويس[1] .

والتابوت ، هو الصندوق الذي يوضع فيه الميت . ويصنع من الخشب والحجر. أو من مواد أخرى . وهو (تبا) في العبرانية . وقد ذكر بعض علـماء اللغة ، ان (التابوه) لغة في التابوت[2] . والتابوت في الأصل (صندوق من الخشب وقد أشير اليه في القرآن الكريم[3]) .

وقد عرف العرب لفظة أخرى استعملوها في معنى (التابوت) هي لفظة (إران)، ويراد بها صندوق من خشب يوضع الميت فيه[4] . وقد ذكر بعض علماء اللغة ان ان الإران تابوت يضع النصارى فيه أمواتهم ويدفنونه مع الميت . واللفظة عبرانية، وقد وردت جملة (حمل على الإران) ، أي حمل في التابوت[5] . وذكر علـــماء اللغة ان (الإران) الجنازة ، وخشب يشدّ بعضه الى بعض تحمل فيه الموتى ، وسرير الموتى ، وتابوت الموتى[6] .

والعادة ان تذكر مناقب الميت عند قبره في أثناء الاحتفال بدفنه اذا كان عظيماً سيداً ، وأن يعجل بدفنه في مقبرة القبيلة أو القريـة أو في بيته . وقد كان من

---

١ Reste, S. 178.
٢ تاج العروس (٩/٣٨١) .
٣ البقره الاية ٢٤٨ ، طه الاية ٣٩ ، اللسان (٢/١٧) « طبعة صادر » .
٤ غرائب اللغة (ص ٢١١) .
٥ المخصص ، (٦/١٣٠ وما بعدها) .
٦ قال الاعشى :
أنرت في جناجن كاران ال ميت عولين فوق عوج رسال
وقال طرفة :
أمون كالواح الاران نسأتها على لاحب ، كأنه ظهر برجد
اللسان (١٣/١٤ وما بعدها) ، (أرن) .

عادتهم دفن الميت في البيوت أو على مقربة منها . أما الأعراب، فقد كانوا يدفنون موتاهم في المنازل التي يكونون فيها ، واذا كانوا في أثناء رحيلهم دفنوهم على قارعة الطرق ولا سيما على المرتفعات المشرفة عليها .

ويعجل العرب بدفن موتاهم . والتعجيل بدفن الميت من الضرورات التي اقتضتها طبيعة الجو . فجو جزيرة العرب لا يساعد على بقاء جسد الميت مدة طويلة ؛ وإلا تعرّض للفساد ، ولحق الأذى به ولهذا صار من الاستحباب التعجيل بدفن الميت ليس في العرف حسب ، بل من الناحية الدينية كذلك .

ويحلق بعض الجاهليين شعر الرأس كله أو بعضه ويرمونه على القبر . وحلق شعر الرأس أو جزّ الناصية أو حلقها أو حلق الضفيرتين من التقاليد القديمة . وكانوا يقومون بذلك إكراماً وتعظيماً لشأن الأرباب ، وعند الحج الى بيوت الآلهة ، فيرمون بالشعر أمام الأصنام تعظيماً لها وبياناً عن مقدار احترامهم لها حتى ضحّوا بأعز رمز لديهم في سبيلها ، ولهذا كان لرمي ضفائر شعر الرأس عند القبر أهمية خاصة في نظر الجاهليين[1] .

وكان في روع الأمم القديمة ان الشعر للفرد قوة وحياة ، فحلقه أو جزّ جزء منه . معناه تضحية كبيرة وصلة تربط الميت بالحي[2] .

القبر:

ويدفن الموتى عادة في حفر تحفر يقال لها : قبر ، وجدث ، ومقبر، ووجر ، ورمس ، وجنن[3] . أما في (بطرا) ، وفي بعض المناطق الجبلية والصخرية ، فقد نقرت المقابر في الصخور ، فصنعت على هيأة حجر وضعت جثث الأموات فيها . كما استعملت المقابر المرتفعة في مدينة (تدمر) ، وذلك بتشييد مبانٍ وضعت فيها جثث الموتى في حجر صغيرة تعمل في تلك الأبنية .

واستعملت الكهوف مقابر كذلك . ففي المناطق الصخرية توجد كهوف طبيعية

---

١ Muh. Stud. I, S. 247.

٢ Ency. Relig., VI, p. 476.

٣ جنن ، ويجمع على أجنان ، اللسان (١٦/٢٤٥) ، Littmann, Safa. p. 69.

سكنها الإنسان ، واتخذها مقبرة له . وذلك بدفن الأموات فيها وسدّ بابها . وقد عثر الباحثون والسياح على عدد منها .

والقبر هو التسمية المعروفة الشائعة في أغلب أنحاء جزيرة العرب ، وقد وردت في نص النمارة ، وجمعها القبور . ذكر علماء اللغة ان (القبر) مدفن الإنسان وان (المقبر) موضع القبر . وأما (المقبرة) ، فهي موضع القبور[1] . وقد وردت لفظة (مقبر) و (مقبرت) أي مقبرة ، و (مقبرتم) أي (مقبرة) في حالة التنكير في نصوص المسند[2] .

وأما (الجدث) فالقبر ، والمجمع أجداث وأجدث، وهو قلة . وورد (الجدف) في بعض الروايات[3] .

وأما الوجر ، فهو كالكهف عند علماء اللغة[4] . فهو يؤدي معنى قبر على سبيل المجاز . وقد ورد في نص مدوّن بالمسند يعود الى القرن السادس للميلاد ، عثر عليه في العربية الشرقية . وهو شاهد قبر رجل اسمه (ايليا) .

ويذكر علماء اللغة ، ان الجنن : القبر ، سُمّي بذلك لستره الميت ، وأيضاً الميت لكونه مستوراً فيه ، وأيضاً (الكفن) لأنه يجن الميت ، أي يستره ، فالأصل في الكلمة السّتر[5] ، ويجمع على أجنان[6] .

وقد وردت لفظة (ضرح) ، أي (ضريح) بمعنى قبر في اللغة الصفوية[7] . ولكن من الجائز أن تكون قد وردت فيها بالمعنى المفهوم من الكلمة في عربيتنا . كما وردت فيها ألفاظ أخرى بمعنى قبر ، مثل : (نفست) أي ، (نفس) ، و (مقل) ، بمعنى (مقيل) ، أي موطن الراحة ومحلها : و (نيت) . ويظهر ان لفظة (نفست) قد أخذت من أصل إرمي هو (نفسا) (نفشا) ،

---

١ اللسان (٦/٢٧٦) ، المخصص (٦/١٣٠ وما بعدها) .
MM8, REP. EPIGR. 3974, CIH 20, 21, F.V. Winnett, « A Monotheistic Himjarite Inscription », in BASOOR, NUM: 83, 1961, p. 24.

٢ تاج العروس (٣/٥٩٩) .

٣ اللسان (٣/٤٣٣) ، تاج العروس (١/٦٠٩) « المطبعة الخيرية » .

٤ تاج العروس (٣/٥٩٩ ، (وجر) .

٥ تاج العروس (٩/١٦٣) ، المخصص (٦/١٣٠) وما بعدها) .

٦ اللسان (١٦/٢٤٥) .

٧ E. Littmann, in Safaitic Inscriptions, Leyden, 1943, p. X.

وقد وردت لفظة (نفش) و (نفس) في النصوص النبطية واللحيانية والسبئية وفي نصوص دُوّنت بلهجات عربيـــة أخرى[1] . ولعل للفظة (نيت) ، علاقة بـ (منوت) و (منايا) و (منون) ، وهي تعني في الصفويـــة : المسافر والسفر أي في معنى أدبي لطيف ، له صلة بالموت ، باعتبار ان الميت مسافر من هذا العالم الى عالم آخر ، وان القبر هو مستقر ذلك السفر .

ويلحد أهل الحجاز لحداً في القبر لوضع الميت فيه . ويقال للذي يلحد القبر ويضع الميت فيه (اللاحد) . ويقال للذي يعمل الضريح (الضارح)[2] .

وكان من عادة الجاهليين رجم القبور أي وضع أحجار فوقها ، وذلك على سبيل التقدير والتعظيم للميت . فإذا زار قريب أو صديق قبر قريب أو صديق له رجمه ، أي وضع أحجاراً فوقه . والرجام الحجارة . والرجمة أحجار القبر ثم يعبر بها عن القبر وجمعها رجام ورجم . وقد ورد في كتب الحديث ان الرسول قال : لا ترجموا قبري[3] ، وان (عبدالله بن مغفل المزني) قال : (لا ترجموا قبري ، أي لا تجعلوا عليه الرجم . وأراد بذلك تسوية القبر بالأرض)[4] ، وعدم نصب أحجار فوقه ليظهر واضحاً شاخصاً .

وتؤدي لفظـــة (رجم) و (رجمت) و (هرجم) أي (الرجم) ، معنى قبر أيضاً . وترد بكثرة في الكتابات الصفوية . ويراد بها الأحجار التي تكوم فوق قبر[5] . والعادة عندهم أن الشخص الذي يمر على قبر ما ، أو يزور قـــبر قريب له ، يضع حجراً او أحجاراً فوق القبر ، تكريماً لصاحبه وتخليداً لذكره، حتى وان لم يعرفه ، لأن ذلك من باب احترام الموت والميت . فالرجام اذن ، هي قبور غطيت بأحجار .

وقد عثر على عدد من الرجام المكتوب الذي اتخذ شواخص للقبـــور فيه اسم الميت ودعاء على من يحاول نقل الرجمة من محلها أو على من يحـــاول تغيير معالم

---

١ المصدر نفسه .
٢ تاج العروس (٢/٤٩٢) . (لحد) .
٣ المفردات ، للاصفهاني (ص ١٨٩) .
٤ اللسان (١٢/٢٢٦) ، (صادر) ، (رجم) تاج العروس (٨/٣٠٤) ، (رجم) ، قاموس المحيط (٤/١١٧) .
٥ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 15, 20, 23.

القبر وازالته أو على من يريد اتخاذه قبراً له أو لأحد أفراد أسرته او يدفن أي أحد فيه . وقد أفادتنا هذه الشواهد في معرفة لهجة القوم وفي بعض الأمور التي لها صلة بالأصنام وبالدين .

وقد استعملت اللحيانية لفظة (قبر) ومنها (هنقبر) ، أي (القبر) ، للتعبير عن القبر ، كما استعملت لفظة أخرى هي (مثبر) (م ث ب ر) ومنها (همثبر) ، أي (المثبر) في معنى قبر[1] . والثبور بالطبع صلة بالموت . وتعبر لفظة (كهف) في هذه اللهجة عن هذا المعنى أيضاً[2] .

ويقال للقبر المُسوّى مع الأرض (رمس) فإذا كان مرفوعاً عن الأرض فهو قبر مسنم[3] . ويظهر أن الجاهليين كانوا يسنمون قبورهم . وقد ورد في حديث (ابن مغفل) : (ارمسوا قبري رمساً)[4] . أي سووه بالأرض ولا تجعلوة مسنماً . والرمس تراب القبر والمَرْمَس موضع القبر[5] .

ووردت لفظة (مقبر) في الكتابات الصفوية ، بمعنى (القبر) ، أي الموضع الذي يقبر به . وهم يرصفون القبر ، ويعبّرون عن ذلك بكلمة (ارصف) . كما يرجمونها بالرجم ويعتبرون ذلك من امارات التقدير والاحترام[6] .

وعرفت مقابر النصارى بـ (الناووس) . وقد شك بعض علماء اللغة في أصلها ، فذهب الى احتمال كونها من أصل أعجمي[7] ، وهي من أصل يوناني ، ومعناها فيها : حجر منقور لدفن ميت ، كما أطلقت على مقبرة النصارى وعلى المعبد والكنيسة ،لأن كثيراً ما كان النصارى القدامى يقبرون موتاهم في الكنائس[8] .

وقد حارب الاسلام عادة أهل الجاهلية في تسنيم القبور ورفعها عن سطح الأرض ، وشدّد على ذلك في الحديث ، وجعلت القبور المسنمة في حكم

---

١ W. Caskel, Lihyan und Lihjanisch, S. 84.
٢ راجع النصوص : ١ ، ٢ ، ٣٦ ، ٩٣ في المصدر المذكور .
٣ اللسان (٤٠٥/٧) ، (١٩٩/١٥) .
٤ اللسان (٤٠٥/٧) ، تاج العروس (١٦٣/٤) ، النهاية (١٠٩/٢) .
٥ بوزن المذهب ، مختار الصحاح (١٩٨) ، الصحاح ، للجوهري (٩٣٣/٢) .
٦ Littmann, Saf. p. 55, 69.
٧ تاج العروس (٢٦٥/٤) ، (نوس) .
٨ غرائب اللغة (٢٧٠) .

الأوثان[1] . ولا بد أن يكون لهذا التشديد سبب ، إذ لا يعقل ورود تلك الأحاديث في موضوع طمسها بغير داع ولا أساس . وسبب ذلك هو تقديس أهل الجاهلية لتلك القبور تقديسهم الأوثان وتقربهم اليها ، وهو ما لا يتفق ومبادىء التوحيد في الإسلام .

ونهى الإسلام عن تكليل القبور . (أي رفعها تبنى مثل الكلل . وهي الصوامع والقباب التي تبنى على القبور . وقيل : هو ضرب الكلة عليها . وهي ستر مربع يضرب على القبور)[2] . وقد كانوا يبنون البيوت والأبنية فوق القبور . وقد نادى الشاعر (لبيد) باني قبر عزيز له بأن يضعف من سمك القبر وأن يرفع الحائط أو السقف،حتى يكون هناك متسع من فضاء فوق القبر[3] . وذكرأنه كانت على قبر (أبي أحيحة) قبة مشرفة[4] .

وقد ورد في شعر (بشر بن أبي خازم الأسدي) ما يفيد بناء أضرحة فوق القبور ، ورفع القبر عن الأرض حتى يكون كسنام الجمل بارزاً ظاهراً . وقد عبر عن بناء القبر ورفعه عن الأرض وبناء ضريح عليه بـ (ارتفد الضريح)[5] والضريح في تعريف علماء اللغة ، الشق في وسط القبر ، وقيل القبر كله أو قبر بلا لحد . وذلك لأنهم يجعلون اللحد في جانب القبر[6] .

ويظهر أن يهود الحجاز ونصاراه كانوا قد بالغوا في ضرب القباب والأضرحة على قبور موتاهم وفي تعظيم قبور أحبارهم وقسسهم ، حتى تحولت قبورهم إلى أضرحة ومزارات . تزار في المناسبات وقد دفنوهم في المعابد . لذلك نهي عن التشبه بفعلهم في الإسلام . وأشير الى عملهم هذا في القرآن الكريم وفي كتب

---

١ « عن أبي الهياج الاسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : الا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى اللهعليه وسلم أن لا تدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته » ، صحيح مسلم (٣/٦١) « باب الامر بتسوية القبر » .

٢ تاج العروس (٨/١٠٣) ، (كلل) .

٣ شرح ديوان لبيد (ص ٢٩٢) .

٤ أنساب الاشراف (١/١٤٢) .

٥ سنأتي بما يرفع الالتباس عنه الى سند كما ارتفد الضريح
ديوان بشر (ص ٥٠) .

٦ اللسان (٢/٥٢٦) . مختار الصحاح (٧٣) ، تاج العروس (٣/١٨٧) ، اللسان (٢/٥٢٦) ، المخصص ، (٦/١٣٠ وما بعدها) .

الحديث . وقد وضع اليهود والنصارى شعار اليهود والنصارى على قبورهم لتمييزها عن مقابر الوثنيين[1] .

ويقال للحائر الذي يحيط بالقبر (الودع) . وقيل : الودع القبر ، أو الحظيرة حوله ، أو المدفن يحير به حائر[2] .

وتعرف علامات القبر ومعالم حدوده بـ (الآيات) ، والآية هي العلامة[3] . وقيل للرجمات التي وضعت على القبر الأحجار والأطباق والصفيح والصفائح والصفاح[4] . ويراد بالصفائح الحجارة العريضة التي توضع على القبر لتغطيته[5] .

وكان منهم من يضع الجريد على القبر ، ومنهم من يضعه داخل القبر[6] . وقد تغرز الجريدة في القبر فيكون رأسها بارزاً فتكون علامة تشير الى القبر. وذكر أن رسول الله أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ، ثم غرز في كل قبر واحدة[7] . ولا زال الناس يتبعون هذه العادة . وقد استعملوا الأذخر والحشيش في قبورهم كذلك . كانوا يضعون الأذخر في الفرج التي تكون بين اللبنات،ويضعون الحشيش تحت الميت وفوقه[8] .

وعثر في مواضع من جزيرة العرب على مقابر دعاهاالباحثون : (تمولي) **Tamuli** لأنها على شكل تلال أو هضاب . وقد اتخذت مدافن . منها (تمولي) البحرين . وسأتحدث عنها في أثناء حديثي عن الفن والعمارة عند الجاهليين .

وقد عثر المنقبون على مقابر جاهلية عامة ، على نحو ما نجده من المقابر العامة في هذا الوقت . وقد نبش عدد منها في الاسلام ، لاتخاذها أملاكاً أو مساجد ، كما حوّل بعضاً منها الى مقابر اسلامية،دفن فيها المسلمون بعد أن أزيلت ونبشت قبور الجاهليين. وأشير اليها في كتب الحديث. ويظهر ان بعضاً منها كان ذا أضرحة وقبور مرتفعة عن الأرض[9] .

---

١ ارشاد الساري (١/٤٢٩) .
٢ تاج العروس (٥/٥٣٧) ، (ودع) .
٣ تاج العروس (١٠/٢٦) ، Muh. Stud. I, S. 233, Noldeke, Beiträge, S. 99.
٤ Muh. Stud., I, S. 233.
٥ تاج العروس (٢/١٨١) .
٦ ارشاد الساري ، للقسطلاني (٢/٤٥٢ وما بعدها) .
٧ المصدر نفسه .
٨ ارشاد الساري (٢/٤٤٢ وما بعدها) .
٩ ارشاد الساري (١/٤٢٩) ، (٢/٤٣٧) .

ولا يدفن في المقابر إلا أفراد العائلة التي تمتلكها ، أو من يؤذن بدفنه فيها . ويعد الإذن بدفن غريب في مقبرة خاصة من علامات التقدير والاحترام بالنسبة للمتوفى الغريب . وقد تحجز مناطق من مقبرة عامة لتكون مقبرة خاصة،فلا يسمح لأحد بالدفن فيها إلا لمالكها . وقد تسور ويعمل لها باب ، وقد يقام ضريح أو بناء ضخم ، مع ان المقبرة هي جزء من مقبرة عامة . ولا تزال هذه العادة متبعة وقد تشترى الأرض ممن يتولى أمر المقبرة العامة . ويحافظ أهل المقابر الخاصة على مقابر أسرهم فيتعهدونها بالرعاية والعناية وبإدامتها على خير وجه . وهي تزار في المناسبات تقرباً الى أصحاب القبور ، لئلا تنقطع صلتهم بموتاهم . وورد ان بعضاً من الجاهليين كان يضرب قبة على قبر عزيز له مدة سنة (للاستمتاع بقربه وتعليلاً للنفس وتخييلاً باستصحاب المألوف من الأنس ومكابرة للحسن. كما يتعلل بالوقوف على الأطلال البانية ويخاطب المنازل الخالية)[1] .

وتراعى القرابة والمنزلة في دفن الموتى في المقابر فتدفن الزوجة على مقربة من زوجها في الغالب والابن على مقربة من أبيه ، وهكذا فكأنهم يريدون بذلك جمع شمل العائلة ، وإعادتها الى ما كانت عليه يوم كانوا أحياءً . واذا كان المتوفى عظيماً وذا مكانة ومنزلة حرص أقرب الناس اليه من أصحابه على نيل شرف الدفن على مقربة منه عند دنو أجلهم . وقد تتحول أمثال هذه المقابر الى مزارات ، خاصة اذا كانت مقابر كهنة وسدنة ورجال دين .

أما قبور الأعراب والفقراء والسواد ، فهي بسيطة ، حفرة تحفر في الأرض يوارى فيها الميت،ثم يهال عليه التراب أو الرمال أو الحجارة حسب طبيعة الأرض فتكون قبر ذلك الميت . وقد يسوّى القبر بالأرض فلا تظهر آثاره ولا تبرز معالمه عن معالم القشرة ، وقد يرفع التراب بعض الشيء ليكون علامة عليه . وقد توضع عصي أو أحجار فوقه لتكون إشارة تشير الى مكانه . وليس في إمكان الأعراب النازلين في البوادي البعيدة عن الحضر ، فعل غير ذلك ، ولا سيما اذا كان الموت قد وقع في حين نزول القبيلة في أرض جاءت اليها في الموسم لترعى العشب أو في أثناء تنقل فإنها لا تستطيع أن تصنع قبراً لميتها غير هذا القبر .

ومدة العزاء عند الجاهليين حولٌ ، أي سنة لا يترك أهل الميت فيها ذكرى

---

١ ارشاد الساري (٢/٤٢٩ وما بعدها) .

فقيدهم ، فيندبونه في أوقات معينة ويبكون عليه عند قدوم قادم اليهم ، وينحرون لذكراه ويكرمون من يأتي اليهم لتعزيتهم[1] . وقد كانت مدة العزاء حولاً عند العبرانيين أيضاً وعند غيرهم من الساميين والشعوب الأخرى ، يقوم فيها أبناء الميت أو بناته بتلاوة صلوات خاصة في خلالها على الميت لير حمه الله وليغفر له وليسعد روحه[2] . وتكاد هذه المدة تكون أمداً للعزاء ولذكرى الميت عند كل الشعوب الى هذا اليوم .

وأما مدة المناحة فهي في العادة سبعة أيام . فلما مات (زيد الخيل) ، الشاعر الفارس ، وهو في طريقه الى دياره ، أقام (قبيصة بن الأسود) المناحة سبعة أيام[3] . ولا تزال هذه المدة مرعية في العراق ، حيث تنوح وتبكي النسوة فيها موتاها ، ويكون اليوم السابع هو ختام العزاء . أما الرجال ، فيقيمون العزاء ثلاثة أيام ، ويسمونه (الفاتحة) في الإسلام بالعراق في هذه الأيام . ويجلس أقرباء الميت وأهله عند العبرانيين سبعة أيام في البيت حزناً عليه وتقبلاً لتعازي الناس . وقد ورد أن مدة النياحة قد تستمر عند الجاهليين فتكون حولاً[4] .

ملابس الحزن :

ويلبس أهل الميت وأقرباؤه ملابس الحزن مدة العزاء أو حولاً كاملاً . واللونان الأبيض والأسود هما اللونان اللذان تتخذ منهما الملابس في الحزن ، فقد لبسوا الملابس البيض ، ولبسوا الملابس السود ، وما زال اللونان شعاري الحزن حتى الآن . فاللون الأبيض هو شعار الحزن في الحجاز والشأم ، أما الأسود ، فهو شعار الحزن في العراق .

وحداد المرأة على زوجها حداد صعب عسير ، عليها في هذه المدة الإمتناع عن الزينة والطيب امتناعاً تاماً ، ويقال لها في هذه الأثناء (الحادة) لأنها حدت على زوجها ، وفي خلال الحداد يمتنع الخطاب من خطبتها والطمع فيها حتى تنتهي منه[5] .

---

١ بلوغ الارب (١٢/٣) .
٢ Isidore Epstein, Judaism, p. 178.
٣ الاغاني (٤٨/١٦) .
٤ اللسان (٢١٦/٣) .
٥ أعمدة القاري (٢/٢١ وما بعدها) .

ويفهم من بعض روايات الأخباريين أن من عادة الجاهليين حجز المرأة عند وفاة زوجها في بيت صغير ، قد يكون خيمة أو بناء يسمونه (الحفش) ، لتقضي فيه مدة العدّة . فإذا كانت في هذا البيت ، لبست شرّ ثيابها ، وامتنعت عن الطيب وعن تزيين نفسها مدة عام[1] . فإذا انتهت المدة افتضت عدّتها (بمس الطيب أو بغيره كقلم الظفر أو نتف الشعر من الوجه أو دلكت جسدها بدابّة أو طير ، ليكون ذلك خروجاً عن العدّة . أو كان من عادتهم أن تمسح قُبُلَهـا بطائر ، وتنبذه فلا يكاد يعيش)[2] .

وتصف رواية أخرى دخول المرأة الحفش وخروجها منه على هذه الصورة : « كانت إذا توفي زوجها دخلت حفشاً ولبست شرّ ثيابها حتى تمرّ بها سنة ثم تؤتى بدابة ، شاة أو طير فتفتض بها ، فقلّما تفتض بشيء إلاّ مات . ثم تخرج فتعطي بعرة ترمي بها ... » . وجاء : و « كانت لا تغتسل ولا تمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تنتف من وجهها شعراً ، ثم تخرج بعد الحول بأقبح منظر ، ثم تفتض بطائر تمسح به قبلها وتنبذه فلا يكاد يعيش »[3] .

ومن عادات بعض الجاهليين ضرب القباب على قبور موتاهم أياماً او أشهراً قد تبلغ عاماً ، يقيم فيها نساء الميت أو ذوو قرابته ، ليجاوروا الميت، وليستقبلوا فيه من يفد لزيارة القبر[4] . واعتقادهم بإحساس روح الميت بوجودهم هناك ومجيئهم الى القبر لمؤانستهم له هو الذي حملهم ، ولا شك ، على ضرب هذه القباب وعلى مجاورتهم لتلك الأجداث . ومن هذه القباب المؤقتة ظهرت الأضرحة الثابتة ذات القباب السامقة الشامخة ، كما أن من المعابد المتنقلة ، أي الخيام المقدسة ، نشأت المعابد الثابتة عند العبرانيين وعند الجاهليين وعند غيرهم من الشعوب .

ومن عادة الجاهليين إسالة دم الذبائح على القبر أو تضريجه بتلك الدماء . فيعقر على قبور الموتى ، وعند إهالة التراب على الميت ، وقد يعقر على القبر كل عام وفي أثناء المناسبات اذا كان الميت من السادة المشهورين المعروفين بالخصال الحميدة كالشجاعة والكرم . وفي الشعر الجاهلي والأخبار أسماء أناس كانوا من المشاهير في

---

١ تاج العروس (٤/٣٠٠) ، اللسان (٨/١٧٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٥/٧٠) ، صبح الاعشى (١/٤٠٣) .
٣ تاج العروس (٥/٧٠) ، نهاية الارب (٣/١٢٠) .
٤ Muh. Stud., I, S. 257.

ايامهم ، جرت العادة بأن تذبح الذبائـــح عند قبورهم إكراماً لهم . وقد بقيت هذه العادة الجاهلية خالدة حتى اليوم مع إبطال الاسلام لها بحديث : « لا عقر في الاسلام »[1] . وليس من الضروري أن يكون أصحاب العقائر من ذوي قرابة صاحب القبر أو من قبيلته . ومن هذه القبور قبر (ربيعة بن مكدم) من (بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة)[2] . وكان الناس يعقرون على قبره . ويظهر من شعر لحسّان بن ثابت قاله لما مرّ بقبره ، أن قبره كان قبراً مبنياً بني من حجارة حرة[3] .

والعادة في العقر ، عقر قوائم الدابة ، وقد تعقر الدابة ثم تذبح، والغالب ان تكون الدابة جملاً أو ناقة ، ولكن بعضهم كان يعقر شاة كذلك ، وذلك اذا كان أهل الميت من طبقة ضعيفة ، يصعب عليها عقر جمل أو ناقة . وقد ورد النهي عن ذلك في حديث آخر هو : « لا تعقرن شاة أو بعيراً إلا لمأكله »[4] .

وقوم كان يحبسون ناقة الرجل وذلك بأن يشدّوا الناقة الى قبر الرجـــل ، ويعكسو رأسهـــا الى ذنبها ، ويغطو رأسها بوليّة ، وهي البردعة،وتربط برباط وثيق حتى لا تهرب ، فإن أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ، واذا بقيت على القبر ، فإنها تبقى في حفرة لا تعلف ولا تسقى حتى تموت عطشاً وجوعاً،ويقال لهذه الناقة السيئة الحظ البليّة . ويزعمون انهم انما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها في المعاد ، ليحشر عليها فلا يحتاج أن يمشي . قال أبو زبيد :

كالبلايا رؤوسها في الولايا مانحات السموم حُرّ الخدود[5]

ووجدت في قبور الجاهليين أشياء مما يستعمله الإنسان في حياته مما يدل عـــلى أنهم كانوا كغيرهم يدفنون مع الموتى ما يشعرون ان الميت قد يحتاج في حياتـــه الأخرى اليه[6] . أما الأعراب فلا نتصور أنهم كانوا يدفنون مع الموتى أشياء ثمينة

---

١ « لا فرع ولا عتيرة » الحديث رقم ٦ ، ٧ . من أحاديث كتاب العقيقة ، صحيـــح البخاري .

٢ بلوغ الارب (١٢٥/٢ وما بعدها) . Muh. Stud. I, S. 241.

٣ نفرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوب
بلوغ الارب (١٢٥/٢) .

٤ اللسان (٥٩٢/٤) .

٥ النهاية ، لابن الاثير (٩٥/١) ، نهاية الارب (١٢١/٣) .

٦ Reste, S. 180.

لفقرهم وبساطة معيشتهم . وقـد عثر في مقابر أهل العربية الجنوبية مثل اليمن وحضرموت على حـليّ وأحجار نفيسة وأمثال ذلك مما دفنه أهل تلك البلاد مع موتاهم ، ليتزينوا بها في العالم الثاني .

وتؤيد روايات أهل الأخبار عن فتح القبور في الاسلام بحثاً عن الغنى والمال، ما ذكرته من احتمال وجود رأي عند عرب ما قبل الإسلام ، بأن الميت سيحتاج الى هذه الأشياء التي دفنت معه ، وأنه سيستفيد منها في عالمه الثاني الذي رحـل اليه . ولكني لا أستبعد احتمالاً آخر ، قد يكون أهل الجاهلية قصدوه من دفن الذهب والفضة من حلي أو سبائك أو صفائح مكتوبة مع الميت ، هو رغبة أهل الميت في اظهار شعور الود والمحبة نحو ذلك الميت ، بدفن تلك النفائس العزيزة معه ، لاظهار أنهم لا يبالون بها بعد فقدهم عزيزهم الميت ، وأنهم يريدون دفن كنوزه معه ، تعففـاً عنها وإزدراء بها . وقد ورد في بعض الأخبار أن امرأة ماتت ، فدفنوها مع متاعها[1] .

ولصيانة القبر وبقائه على حاله أهمية كبيرة عند الجاهليين ، تتجلى في الجمـل التي دوّنوها عـلى شواخص قبورهم ، هذه الشواخص التي عثر عليهـا السياح والباحثون في مواضع متعددة من جزيرة العرب ، وهي تطلب إلى الآلهة بأن تنزل الآلام والأمراض والعـاهات بمن يتجاسر فينقل شاخص القبر من مكانه ، أو يكسره ويأخذه ليستعمله ، أو ما شاكل ذلك[2] . وجملة (عور لذ عور سفر) أي (عـور للذي يعور الشاخص) ، أو جملـة (وعور دشر وخبل) ، أي عمى وجنون (خبل) من الإلـه (ذو الشرى) ، على من يحوّر هذا الشاخص ويغيره أو يأخذه ويغيره لغرض ما[3] ، وأمثالها ، هـي من العبارات المألوفة التي نقرأها بكثرة على شواخص القبور .

ومن الطبيعي أن نجد هذه العبارات وعبارات أخرى أشد منها مدونة على تلك الشواخص ، راجية من الآلهة أن تنزل عقابها على من يحـاول التطاول على حرمة

---

١ اللسان (١٢/٤٨٤) ، « صادر » ، (قسم) .

٢ South Arabian Inscriptions, p. 53. Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. II, 1953, p. 33.

٣ Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol I, 1951, p. 27.

القبر بدفن غريب فيه. ويظهر من هذه العبارات ان من الجاهليين من كان يتطاول على القبور ، ولا سيما القبور المنحوتة والقبور الجيدة المبنية على شكل غرف ، وأضرحة ، فيدفنون موتاهم فيها ، وبذلك تدخل جثث غريبة في تلك القبور ، أو يحولوا تلك المقبرة القديمة الى مقبرة جديدة . وقد يزيلون معالمها تماماً ، أو يدفنون أمواتاً فوق أموات على نحو ما نفعل اليوم في المقابر القديمة المشهورة المقامة حول الأولياء ، حيث تتحول المقابر القريبة من الولي الى مقبرة قد ترتفع من كثرة ما يدفن عليها ، حتى تكون مرتفعاً عن ظاهر الأرض .

وتزار قبور السادات والأشراف ، وخاصة قبور كبار سادات القبائل ، ويذبح عندها ، ويحلف بها ، ويلجأ اليها طلباً للأمان والسلامة ، فلا يستطيع أحد التحرش بمن التجأ الى صاحب القبر ولا ذويه . وقد هجا (بشر بن أبي خازم الأسدي) (أوس بن حارثة) من (آل لأم) ، فكان في جملة ما قاله في هجائه :

جعلتم قبر حارثة بن لأم إلهاً تحلفون به فجوراً

وحارثة بن لأم صاحب القبر ، هو أبو أوس المهجو[1] .

وقد أشار أهل الأخبار الى قبور سادات جاهليين كان الناس يفدون اليها ، ويعظمونها ، ويلوذون بها ، ويطوفون حولها ، منها قبر (تميم) بموضع (مرّ الظهران) ، وقبر (عامر بن الطفيل) ، وقد وضعوا الأنصاب حول القبر لتكون علامة له ، فلا يدخل الساحة التي يكون فيها القبر الى موضع الأنصاب حيوان أو راكب ولا يهتك حرمتها انسان . كذلك كان الناس يحلقون شعورهم عند مثل هذه القبور ، كالذي كانوا يفعلونه عند الأصنام[2] .

وقد حجت قبائل قضاعة الى قبر كان على مرتفع من الشحر ، زعم أنه قبر جدّ قبائل قضاعة[3] . وكانت أمثال هذه القبور ملاذاً يلوذ بها أصحاب الحاجات، كما قصدها الشعراء لانشاد قصائدهم في مدح صاحب القبر والتغني بمجده وبمجد

---

١ ديوان بشر (ص ٩١) .
٢ Reste, S. 184, Muh. Stud. I, S. 231, Smith, Dictionary p. 19.
٣ Muh. Stud., I, S. 231, 235.

قبيلته . ولها حمى حكمه حكم الحمى الذي يحيط ببيوت الأصنام . ويقسم بهذه القبور وبحق أصحابها ، كما يقسم بالأجداد ، ويعد هـذا النوع من القسم يميناً لا يجوز الكذب فيه ، وهـو كالايمان المغلظة التي يحلف بها الناس ويذكرون فيها الآلهة وأسماء الأصنام .

وفي كتب الحديث أن النبي نهى عن الحلف بالآباء والأجداد وبتربهم ، لأن ذلك من عمل أهل الجاهلية . وقد كانت قريش تحلف بآبائها وبأجدادها فتقول : وأبي أفعل هذا ، أو وأبـي لا أفعل وحق أبـي أو تربة أبـي أو وتربة جدك ، ونحو ذلك . وهي ايمان من ايمان الجاهلية نهى النبي عنها[1] .

---

[1] عمدة القارىء (٢٩٢/١٦) ، Muh. Stud. I, S. 229.